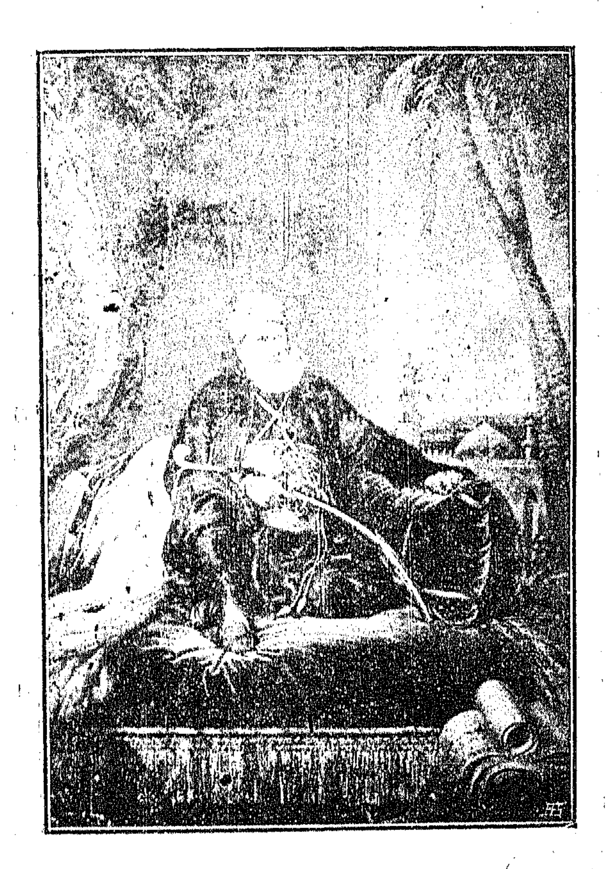


محمد علي

في اواخر ايامه

محمد علي

سيرته واعماله وآثاره

بقلم

الياس الايوبي

عنيت بنشره
ادارة الهلال بمصر
سنة ١٩٢٣

مقدمة

جدير بابناء الشرق في نهضتهم الحاضرة ان يراجعوا سيرة محمد علي ذلك الرجل العظيم الذي جدد مفاخر النيل ونفخ في مصر روحاً جديداً كان الباعث الاول ليقظة الشرق العربي بعد هجوعه الطويل . وقد طلبنا الى الاستاذ الياس الايوبي - وهو الاديب المؤرخ الذي حاز الجائزة الاولى التي منحها جلالة ملك مصر لافضل كتاب يكتب عن تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل - ان يجمع في رسالة متوسطة الحجم سيرة محمد علي واعماله وآثاره لتكون لابناء هذا الجيل هدياً ونوراً . فاجاب طلبنا وها نحن نقدم الى جمهور القراء هذه الرسالة التي تحوي في صفحاتها أهم ما يتعلق بتلك الشخصية الكبيرة والتي جاءت صورة جلية تمثل ما انطوى عليه جد الاسرة الملكية المصرية من السجايا والخلال التي اتاحت له انجاز ما انجز من جلائل الامور

ادارة الهلال

الفصل الاول

نشأة محمد على

ألق ، أيها القارىء ، نظرة على خريطة شبه جزيرة البلقان :
تر ، في جنوب اقليم مكدونيا ،على ضفاف خليج كونتسا ، من جهته الشمالية ، ما بين نهري الهبرو والستريمون المكتنفين سهل « سرس » وعند نهاية هـذا السهل ، صخرة تلج البحر كأنها فرس جمحت براكبها ؛ فلما توسطت الماء أفاقت الى نفسها ، فوقفت تتفكر
وقف ، انت أيضاً متفكراً . فانك انما تر أرضاً تزدحم فيها تذكارات التاريخ . فمكدونيا وطن الاسكندر الاكبر ، أول من جمع العالم القـديم المعروف تحت لوائه ، وساسه بصولجانه ؛ ووطن البطالسة الفخام ، خلفاء ذلك البطل العظيم على عرش مصر ومؤسسي مدرسـة الاسكندرية العلمية الفلسفية ومكتبتها النفيسـة ، التي قضت عليها يد الاقدار ، فيد الحمق الديني . وفي سهل «سرس» بتت معركة فيلبي في مصـير العالم الروماني . ففاز فيها انطونيس واكتافيس (العاملان تحت ستار الانتقام لقيصر والثأر لمقتله ، على الاستئثار بالامر لنفسيهما) ؛ على بروتس وكسيس ، آخري الرومانيـين والمدافعين عن الحقوق الجمهورية . ولم تكن تلك المرة

الاولى ولا الاخيرة التي انحازت الاقدار فيها الى جانب الباطل ، ونصرته على الحق. فالاقدار عمياء القلب ووقوفها في غالب الاحيان، مؤازرة للغشمرية ، علة من العلل الكبرى التي تجعل تقدم البشرية نحو الكمال ، بطيئاً ، كثير الاضطراب

* * *

على تلك الصخرة الفرسية الشكل ، أقيمت ، منذ القدم مدينة صغيرة ، ما مر بها الاسكندر الاكبر ، ورأى شكل قاعدتها ، الا وأبدل اسمها (جاليسو) باسم بوسيفلا نسبة لبوسفلس ، جواده الشهير

فبقيت معروفة بهذا الاسم ، المذكر بالمكدوني العظيم ، حتى وردها البندقيون ـ فينيقيو الاعصر الوسطى ـ وهم يجولون رايتهم التجارية الاستعمارية على سواحل بحر الارخبيل. فلما رأوا هم أيضاً شكلها ـ وكانوا كفينيقيي القدم ، لا يهتمون لمفاخر التاريخ وتذكاراته ولا يعنون الا بالاتجار وارباحه ـ اطلقوا عليها اسم « لا كافالا » ، أي الفرس باللغة الايطالية ، واتخذوها مستودعاً لبضائعهم. فلما آلت الى حكم الاتراك، حرفوا الاسم وجعلوهُ «قوَله»

* * *

في هذه المدينة ، وفي سنة من أخصب سني التاريخ البشري برجال عظام ، وُلد محمد علي الباشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية

الكريمة ، وخليفة الاسكندر والبطالسة ، مواطنيه ، على عرش مصر السني

ان التاريخ لا يدري بالتمام في أي يوم من أي شهر وُلد ـ لان العادة الحميدة ، عادة تقييد المواليـد في سجلات رسمية مدنية لم يعرفها الشرق الا قبيل أيامنا هذه ؛ بفضل عواهل الاسرة المصرية النبيلة ـ ولكنه يعرف انه ولد في سنة ١٧٦٩ ، لانه هو نفسه اكد ذلك فيما بعد

وكأني بالعناية الالهية قصـدت غرضاً معيناً لديها في انها انبتته في السنة عينها التي تشرفت بولد Cuvier ـ العالم الفرنساوي الذي اكتشف من مكنونات الطبيعيات ، اكثر مما اكتشفه كولمبس من مجهول البلدان ؛ و Humboldt ، العالم الالماني ، منشىء علم الجغرافيا النباتية وعلم المناخ المقارن ؛ وشاتوبريان ، الكاتب الفرنساوي البليغ الناثر نثراً أعذب من الشعر ، صاحب كتاب رينيـه وأتلا وكتاب الشهداء ، وكتاب « آخر بني سراج » ؛ وولتر سكت ، الشاعر الاسكتلندي ، صاحب الروايات التاريخية الممتعة ، التي تلذذ كل منا بمطالعتها في صباه ومن اهمها « ايفانهو » و « الطلسم » ـ وهـذه الاخيرة هي المنجم الذي أخذ منـه فقيد العلم والادب ، المرحوم الشيخ نجيب الحـداد ، روايته التمثيلية الشهيرة ، المسماة « صـلاح الدين الايوبي » ؛ وشلر ، الشاعر الالمـاني الاكبر ذي الروح الابية الزكية والشعور الرقيق ، صاحب رواية « غليوم

تل » ، منقذ سويسرا من الاسترقاق النمساوي ، ورواية « عذراء اورليان ، منقذة فرنسا من الاسترقاق الانجليزي ؛وو لنجتن ، القائد البريطاني ، السعيد الطالع ، الذي كتبت له الاقدار الفوز على نابوليون في واقعة واترلو . ونابوليون ، وكفى باسمه تعريفاً

ويلوح لنا ان الغرض المعين الذي قصدته العناية الالهيـة من جعلها مولد محمد علي في سنة ميلاد جميع هؤلاء الاعاظم هو ان يرى الشرق في شخصه وفي اعمـال حياته مجموعة مصغرة للمجهودات والإعمـال التي سجلها التاريخ لاولئك النوابغ . كما سنرى ذلك في حينه

* * *

وكان اسم والد محمـد علي ابراهيم اغا . واما اسم والدته فان التاريخ ، بفضـل العادات الشرقيـة التي كانت ولا تزال تأبى على المرأة ان يعرف اسمها خارج بيتها ، جهله : فلم يعرفنا به . على اننا كنا نود معرفته ، لنحيطه بهالة المجد التي تبـدو لنا أسماء امهات الرجال العظام محاطة بها . لاننا موقنون أن محمـد علي مدين لتلك الام ، اكثر مما هو مدين لابيه ، بالصفات الكريمة ، والاخلاق القويمة ، والعقلية السامية التي نهضت به من الحضيض الى ذروة العلاء والفخار

فقد كانت امه هذه امرأة حادة الشعور ، حساء الخيال . يدل على ذلك المنام الذي يقال انهـا رأته ، وهي حامل بابنها المجيد ،

وفسره لها بعض العرافين ، فأكد لهـا انه يبشر بمستقبل عظيم لثمرة بطنها . فلما بلغ ولدها ، في اول صباه ، من السن ما جعله قادراً على التفهم ، فانها ما فتئت تخبره بذلك المنام ، لتوجد في فؤاده الميل الى عظائم الامور وتنميه وتعززه

واما ابراهيم اغا ، والده ، رئيس خفر الطرق في بلده ، فان هم المعيشة كان يكده كداً لم تكن صفات نفسه ، على فرض وجودها ، تجد معه سبيلا الى الانتشار . وذلك لان مربوط وظيفته كان ضئيلا ، لا يقوم أود عائلته ، حتى لو قبضه كاملا ؛ فكيف به وهو لم يكن يتقاضاه الا ناقصاً ، او لا يتقاضاه البتة ؟ (شأن موظفي الدولة العثمانية في ذلك العهد ، وحتى اواخر القرن الماضي ، بل حتى اواخر حكم عبد الحميد في عصرنا هـذا) . ولولا ان الموت قصف زهرة كل اولاده ، وهم في صباهم الاول ، لما استطاع الى القيام بشؤون تربيتهم سبيلا . ولكنه ، ولم يبق له منهم سوى محمد علي ، فانه حصر كل حنانه واهتمامه فيه ؛ وحاطه بعناية خاصة ، تجلت في المظهر الذي تتجلى فيه العناية عند الوالدين الجهلاء اي انه تركه يشب وشأنه ، دون ان يعلمه ؛ — على ان العـلم لم يكن في ذلك العهد مرغوباً فيه الا قليلا ، لا سيما في الشرق ، حيث لم يكن من علم سوى ما كان الدين اساسه ، أو ما اصطبغ منه بصبغة الدين ؛ — ودون ان يفكر في تهذيب ميوله ، وتوجيهها نحو غرض معلوم في الحياة ، يكون للفتى في البلوغ اليه امان من

الحاجة والفقر . فأخذت الجيرة ، لذلك ، تتحدث في شأن الصبي ، وتندب حظه ، وتتداول قولاً كهذا : ماذا عسى ان يكون نصيب هـذا الغلام التعس من الحياة ، اذا افقده الدهر والديه فجأة ، وهو لا يملك شروى نقير ، ولا علم عنده ، ولا صنعة لديه.! ؟ »

فبلغ الحديث مسامع محمد علي ـ وكانت امه ، على ما قلنا ، مجتهدة في جعل فؤاده حاداً وروحه كريمة . فأثر فيه تأثيراً عميقاً ، وأوقد فيه جذوة نار ما فتئت متقدة منذ ذلك الحين . وقد قال محمد علي فيما بعد : « اني ، منذ سمعت ذلك القول ، عزمت عزماً أكيداً على تغيير ما بي ، وترويض نفسي على امتلاك زمام اهوائي . فقد حدث لي ، بعـد ذلك ، اني استمريت ، احياناً ، على الجري ، يومين كاملين لا اتناول من الطعام الا القليل ، ولا انام الا اليسير ، لاقوي عضلاتي ، واتمرن على خشونة المعيشة . ولم يعد يهدأ لي بال حتى فقت جميع اقراني في جميع التمارين الرياضية . واني لاذكر سباقاً بالمجداف قمنا به في بحر عجاج متلاطم الامواج ، كان الغرض منه البلوغ بالقوارب الى جزيرة قريبة من الشاطىء . فان أقراني ما لبثوا ان كلوا ، وخارت عزائمهم . واما انا ، فاني بالرغم من تسلخ جلد راحتي ، وقد كان لا يزال ناعماً ، ما فتئت اجدف ، مقاوماً الموج والريح ، حتى ادركت الجزيرة ؛ وهي اليوم ملكي ! » ـ وهي جزيرة طشيوز !

على ان الموت ـ ولا نخطىء اذا دعوناه ملاكاً اعمى : فانه

جدير بهذه التسمية اكثر مما كان جديراً بها اله الغرام عند قدماء اليونان والرومان ـ مر ، يوماً بمنجله ، ببيت ابراهيم اغا . فحصد حياة ام محمد علي ، والشاب في اول يفاعته . ولم يكد الغلام يجفف دموعه الا وعاد ذلك الملاك الى المرور بالبيت عينه ، وما غادره الا وخرج منه وراءه النعش الراقدة فيه جثة ابراهيم اغا

* * *

فبات محمد علي يتيما ، وحيداً ، يرى الدنيا حوله كأنها قفر مقفر ولا يدري ما المصير ! فما كان اشبه حاله ـ اذ ذاك ـ بحال فتى آخر سبقه الى الوجود بنحو الف ومائتي سنة ، فتيتم من ابيه ، وهو في بطن امه ؛ وتيتم من امه ، وهو في السادسة من عمره ، فبات والله وحده كفيله ونصيره

وكما انه ، سبحانه وتعالى ، وكل بذلك اليتيم المعد له أبهى الطوالع جده اولاً ، ولما لبى جده داعي المنون ، فعمه : فكان له مربياً وعئولا ، هكذا وكل بمحمد علي ، الذي كان اعده لاخراج مصر ـ كنانته في ارضه ـ من الظلمات الى النور ، عمه طوسن اغا ، اولا ؛ فلما داهم ملاك الموت ذلك العم بعد ذلك بقليل ـ كأنه يأبى ان يبقي من اسرة محمد علي احداً حياً ـ عطف عليه قلب شوربجي قوله ، اي حاكمها ، ـ وقد كان صديقاً قديماً لعائلته فضمه الى بيته ، وآواه تحت سقفه ، ورباه مع ابنه

فما اقام محمد علي قليلا في تلك الدار ، الا وتعرف به فرنساوي

يقال له المسيو ليون ، كان على رأس محل تجاري في قوله منذ سنة ١٧٧١ . فاستوقف انتباهه ذكاء الغلام الفطري النادر ، وحسن حكمه على الامور في شئون قلما يدركها من كان في مثل سنه . فاحبه كثيراً ، واخذ يزوده بالنصائح والارشادات الثمينة ، ويبشره على مسمع من الشوربجي وعائلته بمستقبل سعيد ، فيما لو وجد من صروف الدهر تعضيداً . فكان لحب هذا الفرنساوي الابوي اثر عميق في قلب محمد علي جعله ، منذ ذلك الحين ، ميالا الى الفرنساويين أكثر منه الى كل جنسية غربية أخرى . وحمله في سنة ١٨٢٠ ــ لما استتبت قدماه على السدة المصرية ــ على البحث عن المسيو ليون ، لمعرفة ما آل اليه أمره . فلما علم انه عاد الى مرسيليا ، مسقط رأسه ، كتب اليه ملحاً بالمجيء لزيارته على ضفاف النيل . فاجاب المسيو ليون الدعوة . ولكن ملاك الموت الاعمى مر به في نفس اليوم الذي كان عينه لسفره ، فارداه . فلما بلغ محمد علي الخبر المؤلم ، بعث الى اخت المتوفى بكتاب تعزية بليغ ، وأرسل اليها ، رفقته ، هدية ثمينة فاخرة اظهارا لاعترافه بجميل اخيها عليه

وتعرف محمد علي ، في بيت الشوربجي ، بشيخ وقور جاوز السبعين من عمره ، كان يتردد كثيراً على منزل ذلك الحاكم ، وكانت له فيه منزلة خاصة ، لما اشتهر عنه من درايته بتفسير الاحلام . وهي دراية كان لها في عالمنا الشرقي منزلة كبيرة جداً ،

كثيراً ما ادت بمن تحلى بها الى أرفع المناصب . ـ ألم يصبح يوسف ابن اسرائيل ـ عليهما السلام ـ بفضلها ، وحدها ، عزيز مصر على عهد أحد فراعنتها الهكسوس ؟

هـذا الشيخ ما لبث ان اصبح ، هو ايضاً ، شغوفاً بالشاب كبير الميل الى محادثته وملازمته . فلكثرة ما كان الكلام بينهما ، وفي بيئتهما ، يدور على المنامات وتفسيرها ، فان المنام الذي رأته ام محمد علي ، وهو في بطنها ، وقصته عليه في اوائل صبوته ، أخذ يتردد كثيراً على مخيلته ، ويوقظ فيها اوهاماً غريبة ، جعلته يحلم ، ذات ليلة ، انه ظمىء ظمأ شديداً ، فشرب كل ماء النيل ولم يرتو . فلما كان الصباح ، قص منامه على الشيخ . فقال هذا له : «ابشر ، يابني : فان منامك يعني انك ستملك وادي النيل باسره ، ولن تكتفي به ، بل ستسعى الى امتلاك اقطار غيره ! » فهزأ محمد بالتفسير ، لانه استبعد الامر جداً . ولكنه بالرغم من ذلك ، رأى ان مخيلته أخذت تزداد تغذياً بما كان يساورها من اوهام

* * *

وكأني بالخرافة ـ بعد ان بلغ محمد علي اوج مجده وشهرته ـ رأت بعيون مخيلتها الملتهبة ما كانت تتغذى به مخيلة محمد علي ، في تلك الفترة من حياته ؛ فارادت ان تعطي للاحلام جسما وتلبسها لباس الواقع ، اتباعاً لما هي عادتها في احاديثها عن عظماء رجال التاريخ . فروت ان بطلنا ، لما بلغ سن نضوج الشباب ، أقدم على

اعمال فروسية عجيبة ـ كتطهير البلاد من اللصوص العائثين فيها فساداً ، ومن الحيوانات الكاسرة التي كانت تفتك في الشتاء بالاهلين ـ ما لفت اليه انظار السلطان العثماني وحمله على تقليده امارة الاي من الجند ، أتى به محمد علي من الغرائب في ميدان مطاردة اللصوص وعصاباتها العجب العجاب . فكبرت منزلته وعلت درجته في عيني الخليفة وطارت شهرته في العالم وبات مجرد النطق باسمه يلقي الرعب في قلوب قطاع الطرق . فرأى أمير المؤمنين ان يعهد اليه بقيادة اسيطيل لمطاردة قرصان البحار ، وقطع دابرهم كما قطع دابر لصوص الجبال والبطاح . فتعقب محمد علي اولئك القرصان ، وما انفك يوقع بهم ويدمر مراكبهم ويهلك جموعهم حتى استأصل شأفتهم ونظف منهم بحر مرمره وبحر الارخبيل فقرت به عينا السلطان وادناه من نفسه ؛ واراد ان يقلده وظيفة سامية في بلاطه . ولكن محمداً فضل العودة الى بلده والاقامة في مكان مسقط رأسه ، بين صحبه وخلانه

على ان التاريخ إن جهل هذه الاختلاقات الخرافية ، الا انه يذكر لمحمد علي الواقعة الحقيقية الآتية : لما بلغ الشاب الثامنة عشرة من عمره ، اتفق ان اهالي قرية يقال لها براوستا ، واقعة في دائرة أحكام شوربجي قوله ، رفضوا دفع الاموال المفروضة عليهم واذ لم يكن لدى الشوربجي من القوة العسكرية ما يكفيه لارغامهم على دفعها عنوة ، احتار في أمره ، وبدت على وجهه امارات الكدر

والاضطراب . فلحظ محمد علي منه ذلك ، ولما وقف على السبب ، عرض عليه خدمته قائلا انه يتكفل باجبار اهل براوستا على دفع الاموال ، ولا يطلب منه لنفاذ ما يدور في خلده سوى عشرة رجال كاملي السلاح . فوضعهم الشوربجي تحت تصرفه ، وترك له حرية العمل ، لما قرأه من أكيد العزم في عينيه

فذهب محمد علي الى براوستا ، ودخـل مسجدها ، وأدى فيه الصلاة على مرأى من الجميع ؛ حتى اذا فرغ منها ، أرسل في طلب اربعة من أعيان الناحية ، بحجة تبليغهم نبأ ذا اهمية خطيرة . فاسرع الاربعة في المجيء ، وهم أبعـد ما يكونون عن كل ظن . ولـكنهم ما كادوا يتجاوزون عتبة المسجد ، الا وانقض رجال محمد علي عليهم وشدوا وثاقهم . فصاحوا واستغاثوا . فاجتمع أهل الناحية عليهم في هياج . فتوسط محمـد علي رجاله العشرة بالاسرى الاربعة ؛ وهدد قومهم بذبحهم ، اذا أبديت أقل حركة لانقاذهم من بين يديه . ولما كانت كل مظاهره تؤكد لاهـل براوستا ان الفتى غير مازح في تهديده ، لم يجسر أحد على التعرض له . فسار بالاسرى الى قوله ، وسلمهم الى شوربجيها . فما كان من أهل براوستا الا انهم بادروا من غد بالاموال المطلوبة منهم ؛ وافتدوا أعيانهم

هـذه الحادثة تبدي شخصية محمد علي في أتم حقيقتها ، وتظهر معدن نفسه اظهاراً جلياً . فنراها مزيجاً عجيباً من تروّ سريع ، فادراك سريع ، فعزم سريع ، فاقدام جسور ، فشجاعة نادرة

لذلك كبرت منزلته في عيني الشوربجي . فرفعه الى درجة بلوك باشي ، وازوجه من قريبة له ذات ثروة واسعة ، كانت مطلقة . فبنى بها واستولدها خمسة اولاد ؛ منهم ثلاثة ذكور سماهم ابراهيم وطوسن واسماعيل اكراماً وذكراً لابراهيم أبيه ؛ وطوسن عمه ؛ واسماعيل الشوربجي المحسن اليه . وبنتان تزوجتا فيما بعد ؛ الكبرى بمحرم بك أمير الاسطول المصري والذي تسمى باسمه أحد احياء الاسكندرية الاكثر اتساعاً ؛ والصغرى باحمد بك الدفتردار ؛ فاتح الكردفان وسنار والمشتهر بقسوة لا حد لها .

ودل تاريخ حياة محمد علي التالي على ان زوجته هذه كانت طالع سعد عليه ، كما كانت أمنا خديجة رضي الله عنها طالع سعد على نبينا (صلعم) ؛ وكما كانت جوزفين طالع سعد على نابوليون الاول . — وفي ماجريات الحوادث من الغرائب والاسرار ما ليس في وسع فلسفة ادراك كنهه البتة . فكيف بتفسيره ؟

على ان زواج محمد علي — ان مكنه من النظر الى المستقبل بعين لم تعد تثقلها هموم المعيشة المادية ، ومكنه من الاندماج في سلك تجار التبغ برأسمال يضمن النجاح ، بقدر ما يمكن ان يضمنه مال — فانه ، بما قدمه له من هناء في الحياة ، وبسطة في العيش ، أخذ يطفىء شيئاً فشيئاً ، في فؤاده ، لهب النزاع الى المعالي وجذوة الرغبة في المجد والفخار ، وبات يهدده بخمول الذكر وانطفاء الاسم مع انطفاء الحياة : فمعظم رجال التاريخ من الفقراء ، لا من الاغنياء



نابوليون بونابرت
بلباسه الشرقي



محمد علي
بالعمامة

ولكن الاقدار التي اوقدت في السماء نجمه ، مذ اقترن بقرينته ، لم تكن لتسمح بذلك . فما لبثت ان أتاحت له الظرف المناسب لتزكية ذلك اللهب وتلك الجذوة ، وفتحت له الميدان الواسع ، لنشر ما أوتي من ميزات عزيزة فيه . فدلت ، بذلك ، على ان العبقرية بلا فرص لنار بلا وقود : وصدقت قول جراي « Gray » الشاعر الانجليزي في قصيدته المعنونة « مرثية في مقبرة » : « ألا كم من ميت مدفون في هذه الترب ، كان يكون شاعراً مفلقاً ، او خطيباً مصقعاً ، أو بطلا مروعاً ، او فاتحاً مدوخاً ، لو وجدت عبقريته الطبيعية من الفرص توفيقاً ! »

ذلك الظرف الامثل الذي اوجدته الاقدار ، الرؤفة بمصر ، لعبقرية محمد علي انما كان اقدام الباب العالي على اخراج الحملة الفرنساوية من مصر ، تلك الحملة التي أتى بها الى هذه الديار الجنرال بونابرت ، فمكثت فيها ثلاث سنوات ، كانت كأنها الصيب المستمر ، لم ينقطع فيه وميض البروق وانقضاض الصواعق ، وظنها من عاصرها من الشرقيين أكبر المصائب وافدح الكوارث . ولكنها كانت ، في الحقيقة ، كالصيب الذي يثور في جو قاتم مدلهم : فيزيل ما به من انبعاثات فاسدة ، وينظفه ، ويجعله صالحاً لسطوع الشمس البهية فيه : كما انه يجلي او يقتل ما على سطح الارض من ميكروبات ، ويهيئها للزرع الجيد . فما وردت اوامر الاستانة الى شوربجي قوله تلزمه بتجنيد ثلثمائة رجل من دائرة حكمه ، الا وبذل اسماعيل اغا

جهده لامتثالها . وما لبث ان تمكن من نفاذها : لان الدعوة الى الحرب والجلاد ما فتئت ، على ممر القرون ، تعمل عمل السحر في نفس الامة التركية . فجند الفرقة المطلوبة ، ووضعها تحت قيادة ابنه . ثم استدعى (محمد علي) اليه ، وكلفه الانضمام الى ولده ، والسير معه لاخراج « الكفار » من مصر

فقارن محمد علي – في الحال – بين هناء المعيشة الذي يُطلب اليه تركه ، والمشقات والاخطار التي يضطره القبول ان يتعرض لها . فعز عليه هناؤه ، فرفض بتاتاً . ولم يجد ، في تحويله عن عزمه ، صخب ولا تهديد ، وخرج من حضرة ولي نعمته ، وهو مصمم التصميم كله على نبذ الطاعة وعدم مفارقة وطنه !

هكذا أبى صلاح الدين يوسف بن ايوب الذهاب الى مصر مع حملة عمه اسد الدين شيركوه الثالثة ؛ ولم يرض بالذهاب ، في نهاية الامر ، الا مكرهاً . فأوصلته الطريق التي ولجها ، رغم أنفه ، الى أعلى ذروات المعالي البشرية ! فليتباه ، بعد هذا ، متباهٍ بحسن رأيه ، وصدق احساسه !

وبينما محمد علي عائد الى محل تجارته ، قابل في طريقه الشيخ الوقور ، الذي كان قد فسر له منامه . فاقترب الشيخ منه ، واخذ من يده شبكه ، ودخن به قليلا – ومحمد علي لا يرى في ذلك حرجاً لما بينهما من الالفة – ثم تفرس في وجهه وقال له : « ما بالك ؟ فكأني أراك مضطرباً ! »

اجاب محمد علي : « انهم يريدون ارسالي الى مصر لمقاتلة الكفار »! فقال الشيخ : « وبما اجبت ؟ » قال محمد : « بالرفض طبعاً ، فالوطن خير وأبقى ، والمرء يجد فيه اخواناً ورفاقاً يصافحهم ويصافحونه ، والحياة تنقضي فيه ، هنيئة ! »

فقال الشيخ ، وقد زاد على وجهه الوقار ، واكتست ملامحه كلها جداً : « أنت غلطان ، يا صديقي . أجل ان الطريق لطويلة ؛ ولكنها توصل الى العلا . فانت غلطان ، غلطان جداً ! »

فرنت كلماته هذه في آذان محمد علي ، كأنها صوت المستقبل ، وفتحت امام عينيه ، آفاقاً زاهرة ، وقد قال هو نفسه فيما بعد : « ان كلام ذلك الشيخ الذي كنت اثق به وثوقاً كبيراً اقنعني . فعدت الى الشوربجي ، ووضعت نفسي تحت تصرفه ! »

* * *

وكأني بالحوادث ، مذ خطا محمد علي خطواته الاولى في سبيله الجديد ، ارادت ان تحقق شطراً من قول ذلك الشيخ ، وتبرر نصيحته . فان ابن الشوربجي ـ وكانت متاعب السفر البحري ومشاقه قد انهكت قواه ـ ما وضع رجله على رمال الشواطىء المصرية الا واقتنع بان لا شيء في ميوله ومزاجه يتفق مع بقائه تحت السلاح . فتخلى عن فرقته لمحمد علي ، وعاد الى بلده

فاصبح محمد علي بذلك بمباشياً

الفصل الثاني

في السبيل الى الذروة

هذه الخطوة الاولى تلتها خطوات أخرى سريعة . فان بسالة محمد علي واقدامه استوقفا حالاً انتباه رؤسائه . وجعلاهم يكلون اليه جل المهمات

ولكن بطلنا ما لبث ان أدرك ان البسالة والاقدام قد ينفعان. واما التقدم السريع فلا يدرك الا بالتقرب من الرؤساء . فأخذ من وقته يبحث عن سند ينفعه لدى ذوي الامر . فوجده في شخص رجل يقال له حسن اغا ، أحد ضباط القبطان باشا الاخصاء . فتوسط له حسن اغا هذا : فألحقه القبطان باشا بخدمة خسرو باشا ، وأفهم خسرو باشا هذا ان محمداً رجل يعتبر اكتسابه مغنما

وكان خسرو باشا قد تعين والياً على القطر المصري بفضل مساعي القبطان باشا سيده ، في الاستانة . فرأى ان يعتز برجل أوصاه به ولي نعمته خيراً . واظهاراً لمحظوظيته ، من محمد علي ، أهداه ، بعد قليل ، حصاناً من جياد اربعة قدمت له على سبيل الهدية ،

ورفعه في أواخر سنة ١٨٠١ الى رتبـة ساري ششمه ، اي جنرال أو لواء كما يقولون الآن

فتمكن محمد علي ، من هذا الموقف العالي الذي بلغه في أقل من سنتين ، ان يلقي نظرة على مجاري الامور حوله ، وان يزن الاحوال والرجال بميزان تقديره الراجح

فرأى ان الاحوال فوضى ، يتنازع الامر فيها ثلاث قوّات : الجيش الانجليزي والجيش التركي والامراء المماليك

* * *

اما الجيش الانجليزي ، فبعد فراغه من اجلاء الفرنساويين عن مصر لم تكن له مهمة محدودة ، لان سياسة الحكومة الانجليزية في ذلك العهد ، كسياسة الحكومة الانجليزية في أيامنا هذه ، كانت متخبطة بين الاحتفاظ بمصر أو الجـلاء عنها ؛ وبين نصرة الباب العالي على المماليك أو المماليك على البـاب العالي . لا تدري أين تستقر ، ولا بأية صبغة تصطبغ . وما لبثت كذلك حتى أبرمت بين انجلترا وفرنسا معاهدة (امين) التي قضت على الجيش الانجليزي بالجلاء عن مصر . فسلم الاسكندرية وقلاعها الى الاتراك في ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ وغادر البلاد

واما الجيش التركي ، فان قواده كانوا مزودين من لدن الباب العالي بتعليمات تلزمهم — بعـد الفراغ من اخراج الفرنساويين — بالقضاء على المماليك ، ليستقيم عود الاحكام في القطر المصري ، على

مثال ما كان في باقي الولايات العثمانية . فلم يكن اذاً لاولئك القواد من دأب سوى العمل على تنفيذ تلك التعليمات . ولولا وقوف الجيش الانجليزي أمامهم موقف المعارض في ذلك والمدافع عن قضية المماليك ، لتمكن يوسف باشا ، الصدر الاعظم وقائد الجيش البري ، وقجك حسين قبطان باشا ، أمير الجيش البحري من تنفيذها ، الى حد ما ، من باب الاحتيال والقدر

واما المماليك ، فانهم ، بعد كسراتهم المتتابعة التي أصابتهم على أيدي الفرنساويين وما وقع بهم من فناء فيها كانوا قد تضاءلوا وأمسى عددهم لا يزيد على خمسة آلاف . ولم يكن في استطاعتهم تجديد قواهم : لان الباب العالي ، الراغب في القضاء عليهم ، كان قد أصدر أمراً حال بينهم وبين ذلك بتحظيره بيع الشبان في اقليمي الكرج والشركس . غير انهم ، مع ذلك ، كانوا يمنون نفوسهم بالعودة الى ما كانوا عليه قبل الحملة الفرنساوية من الاستبداد بالاحكام. ولو كانوا متحدين ، متناصرين ، ربما استطاعوا الى ذلك سبيلا . ولكن زعيميهم الاكبرين عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي نزعا الى منافسة فتحاسد فتباغض ، فعداء صريح . فاوجب ذلك وهن قوة الامراء ومكن أعداءهم منهم

على ان ما كان بين البرديسي والالفي من منافسة كان أيضاً بين يوسف باشا ، الصدر الاعظم ، وقجك حسين باشا أمير البحر. ولكن نفوذ هذا ـ وكان رفيق صبوة السلطان سليم الثالث ، ومجدد

بهجة العمارة العثمانية ـ تغلب على نفوذ ذاك فتمكن من جعل الباب العالي يقلد مملوكه خسرو باشا ولاية مصر ـ كما قلنا ـ وان يعهد اليه في مهمة القضاء على المماليك

فلما قدم خسرو باشا الى القاهرة واستلم مهام وظيفته انسحب يوسف باشا الى سوريا . غير مخلف في القطر من جيشه الزاخر سوى ١٣ الف رجل . واقلع القبطان باشا بسفنه تاركا لمحسوبه ٤ آلاف الباقي كانوا من اولئك الثلاثة عشر الفاً بمثابة القلب من الجسد

فاسرع خسرو باشا الى اغتنام العداوة القائمة بين البرديسي والالفي ، وشرع يعمل على اضعاف قواهما بالدسائس تارة وبالترغيب أخرى . وكان المماليك ، بعد ان تحققوا من نيات تركيا نحوهم ، قد نزعوا الى القتال واخذوا يجتاحون البلاد ويمنعون الاموال عن الحكومة

فسير خسرو لقتالهم فرقتين من الجند احداهما تحت قيادة يوسف بك ، احد المقربين اليه ، والاخرى تحت قيادة محمد علي

فتقدمت القوتان بسرعة نحو دمنهور حيث كان ثمانمائة مملوك تحت قيادة عثمان بك البرديسي قد اتخذوا موقعاً حصيناً يهددون منه العاصمة ويتمكنون فيه من الاتصال بالانجليز ـ وكان جيشهم لا يزال بالاسكندرية ـ ولكن يوسف بك سبق محمد علي ؛ وفي صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٠٢ ، صف

وراء دمنهور ، جيشه ، وكان يزيد على سبعة آلاف مقاتل ، وشرع في اطلاق النيران على المماليك . فما كان من عثمان بك البرديسي الا انه انقض بفرسانه على جنب الجيش التركي اليسار ـ وكان مكشوفاً ـ فاخترقه ، وداس الرجال تحت حوافر جياده . فذعر العثمانيون وأركنوا الى الفرار . فركب البرديسي برجاله ظهورهم وأعمل فيهم السيوف فقتل منهم اكثر من خمسة الاف رجل بينما لم يقتل من رجاله سوى ستين . ثم عاد واستولى على جميع مدافع اعدائه وذخيرتهم . ولم ينج يوسف بك من هذه الكارثة الا بكل مشقة . ولكي يخفف من وطأة المسئولية عليه ، رأى بالرغم من ان عدد الجيش الذي قاتل به الثمانمائة مملوك كان تسعة اضعاف هؤلاء ، ان ينسب انكساره ، لدى خسرو باشا ، الى تخلي محمد علي عنه في المعركة

ومن المؤكد ان محمد علي كان يستطيع ـ لو شاء ـ الاسراع بجنده ، والاشتراك مع يوسف بك في القتال

ولكن محمد علي كان قد انتهى من النظرة التي القاها على مجاري الامور حوله الى انه ادرك أن القطر ممزق مدوس . وان القوم يشتغلون كل لمصلحته بتأثير منفعة كل منهم الشخصية ، ولو ادى تحقيق هذه المنفعة الى خراب عام . والى انه ليس بين كبار قواد العثمانيين واحد فقط كفوءا للمهمة التي وضعها الباب العالي نصب اعينهم . ووزن خسرو باشا رئيسهم الاعلى . فوجده ناقصاً

لا يصلح لمهمات الامور : لان ادارته اظهرته رجلا سيء التدبير ، غير محسن التصرف ، محباً لسفك الدماء غير متروٍ في ذلك ، لا يضع شيئاً في محله ، يتكرم على من لا يستحق ، ويبخل على من يستحق ، كثير الغرور ، ومطاوعاً لمن أحدق به من قرناء السوء . فحكم بانه اذا هو وضع كفاءته في خدمته كان مغفلا

ورأى محمد علي ، من جهة أخرى ، ان المماليك على ما بهم من وهن لا يفترون منشقين بعضهم على بعض . ووزن رئيسيهم الاكبرين : فوجد ان عثمان بك البرديسي — وان لم تعوزه صفة واحدة من صفات البطولة الحقة — لم يكن يصلح لتولي زمام الامور . لانه كان رجلا قصير النظر ، ليس لديه شيء من الحكمة والفطنة اللازمتين لمن يريد ان يحكم الناس ويسوسهم ؛ يغلب عليه تسليم زمام اعماله الى انفعال اهوائه ، وانفعال اهوائه الى وساوس الخناسين من الابالسة والناس . ووجد ان محمد بك الالفي — على بطولته التي لم تكن تحتمل ان يشك فيها — كان رجلا كبير الغرور بنفسه ، كبير الميل الى اللذات ، متقلب الاهواء ، نفوراً ، يهمه ان يتزوج من كل بدوية تعجبه ، على ان يطلقها بعد اسبوع او اسبوعين ، وان يرتدي الملابس الفاخرة الساطعة . واما الشئون العامة فلا تهمه الا بقدر ما هي ينبوع تنعم ونفوذ له

فحكم بان رأي الدولة العلية في المماليك صائب ؛ وان مصير البلاد الى أيديهم مصيبة كبرى عليها . وانهم — ان لم يرعووا ويقلعوا

عن فوضاهم ، ويمتثلوا للاحكام ، ويكونوا جزءاً من الهناء العام بدلا منهم معكريه — كانت مطاردتهم واجبة وكان استئصال شأفتهم بجميع الوسائل الممكنة امراً مرغوباً فيه وعملا مبروراً

ثم وزن نفسه بدقة وبدون محاباة ، فوجد انه الرجل الوحيد الذي يمكنه ان يكفي الاستانة ومصر شر المماليك . والوحيد الذي يمكنه ان يحكم البلاد حكماً يصلحها ويعلي من شأنها . ورأى ان ما خصه به الباري — دون سواه — من مزايا البطولة الحقة والرجولة الحقة ، ومن ميزات الرجل المخلوق للامرة والادارة ، يكفل له تحقيق المنام الذي فسره له الشيخ الوقور ، والبلوغ الى الذروة ، اذا هو عرف كيف يستفيد من الظروف ، وكيف يجعل الفرص تثمر الثمر المرغوب فيه ، بان لا يستخدم كفاءته الا في مصلحة فريق يؤدي انتفاعه بها الى القضاء المبرم على خصمه ، وكيف يسير بحكمة سفينة طالعه وآماله

فدخل بها بحر تلك الفوضى العجاج بجانب قوارب الضار بين فيها ولم يكن بينهم احد يعلم المصير . بل كانوا يمخرون حيثما تذهب بهم رياح تصرفات الايام . وبينما هم غافلون ، ربط سفينة مطامعه ، بحبال خفية ، بكل قارب من تلك القوارب ، وربط دفات الجميع بدفة سفينته ، من حيث لا يشعر احد . فاصبح كل يجذف بمجذافه ، ويظن انه يجذف لنفسه وفي مصلحتها ، بينما هو ، في الحقيقة ، يجذف ليوصل الى الفرصة الامينة سفينة ذلك الربان الحاذق ، الذي

كان يدير الدفات كلها في الخفاء ، وهو على ظهر سفينته ، ونجمته القطبية المنيرة له السبيل بين الشعاب ، تحقيق الحلم الذي رآه

هكذا نرى واضع الانغام عند الغربيين يضع لكل وتر نغماً ، ولكل بوق نفخاً ، ولكل منشد ترنيماً . فيعزف العازفون ، ويغني المغنون ، وكل واحد لا يدري ما نغم رفيقه ، فيجتهد باتقان نغمه ، ظناً منه أنه الفائز باستحسان الجمهور وتصفيقهم ، وما هو في الحقيقة، عامل الا على نجاح مجموع النغم ، واظهار حذق الواضع واكتساب الشهرة والفخر له

وكما ان واضع روايات قره قوز يدير ، من وراء ستار، حركات جميع الممثلين فيها ، مع انها تبدو للعيان كأنها حركاتهم الشخصية ، هكذا شرع محمد علي يدير حركات الضاربين في تلك القوارب ، والملأ يعتقد انهم هم القائمون بها

فامتنع لذلك جميعه عن الاشتراك في معركة دمنهور

ولما كان الذكاء لا يعوز خسرو باشا ــ وان اعوزته صفات الرجولة الحقة ــ فانه ادرك في الحال ، تسبب امتناع محمد علي من الاشتراك في تلك المعركة . ولدى تصوره ان الرجل مدين له بتقدمه كله ، ثارت في فؤاده ثورة غضب هائلة ، وصمم على الايقاع به . فأرسل يستدعيه اليه ، بعد صلاة العشاء ، بحجة المفاوضة معه في أمر خطير . فلم تنطل الحيلة على محمد علي ، واجاب انه سيذهب الى مقابلة الوالي في رابعة النهار وبمعية جنده

وبما ان البرديسي ، بعـد وقعة دمنهور وارتحال الجيش الانجليزي ، كان قد سار الى الصعيد وانضم الى مماليك ابراهيم بك الـكبير ، واستولى معهم على مدينة المنيا ، فقطع كل اتصال بين القاهرة ومصر العليا ، فان خسرو ، لاضطراره الى ازالة هذا الخطر الجديد ، واحتياجه في ذلك الى محمـد علي ، اجل النظر في أمر معاقبته الى فرصة أخرى . وأرسل يستقدمه ، هو وقائداً آخر يقال له طاهر باشا الى مصر ، ليسيرا منها بعساكرهما الى المنيا لاستردادها

ولـكن محمـد علي رأى ان الوقت حان لازالة خسرو عن المسرح : فحرك عليه ، في الخفاء ، العساكر . فابوا الزحف الا اذا دفعت لهم متأخراتهم . فاحالهم خسرو على الدفتردار ، وهـذا أحالهم على محمـد علي ، كأني به قد ادرك من اين الضربة آتية . فاجبهم محمد علي انه لم يصله شيء من مرتباتهم . فاستشاط الجنود غيظاً ، لانهم اعتقدوا ان الدفتردار ومولاه يهزأون بهم . وعادوا فحاصروا بيت الدفتردار . فابلغ الدفتردار الخبر الى خسرو باشا . فثارت في رأس الوالي ثورة الغضب ، وأمر باطلاق مدافع القلعة على الجنود . فطار صواب هؤلاء . فتركوا الدفتردار وشأنه ، وتدفقوا الى سراي الوالي يهاجمونها . فرأى طاهر باشا — بايعاز من محمد علي — ان يتوسط بينهم وبين الوالي . ولـكن خسرو لم يخيب رأي محمد علي فيه ، وأبى بغلظة مقابلة طاهر . فانقلب طاهر عدواً صريحاً . واخذ معه فرقة من العساكر ، وسار بها الى القلعة .

فاغلق حفظتها ابوابها في وجهه . ولكن بعض جنوده تمكنوا من النفوذ الى داخل سورها الاول ، وافسدوا على الحكم قلوب الحرس المقام هناك . فلم يعد يستطيع خازندار خسرو ، المتولي امر ذلك الحرس ، المقاومة ، وفتح في الحال الابواب لطاهر ومن معه . فدخلوها واخذوا يطرون القنابل منها على سراي الوالي . فادرك هذا ان القلعة سقطت في ايدي العصاة . فجمع حرسه النوبي وزهاء مائة عثماني ونفراً من الفرنساويين كانوا في خدمته ، ونساءه ، وخرج من سرايه ، وسار بجمعه الى المنصورة .

فخلا الجو لطاهر باشا واضطر قاضي الديار الى المناداة به قائمقام الولاية حتى ترد أوامر الاستانة . وكان الدور المخصص في فكر محمد علي لطاهر هذا السعي الى مصالحة المماليك ليتساعد بهم على الفراغ من أمر خسرو وعلى الوقوف في وجه الانكشاريين وخلافهم فيما لو أراد أحد استخدامهم لمعاقبة الثائرين على خسرو

فكاتب طاهر المماليك واستدعاهم اليه . فنزل الامراء من الصعيد وأتوا وأقاموا معسكرهم في الجيزة

ولكن محمد علي ما لبث ان وزن طاهراً : فلم يجده كفوءاً للقيام بالدور . لان طاهراً بدا رجلا سلبياً مهووساً ، يميل الى السلباء والمجاذيب والدراويش . عمل له خلوة في الشيخونية ، كان يبيت فيها كثيراً ، ويصعد مع الشيخ عبد الله الكردي الى السطح في الليل ، ويذكر معه ، أو يجتمع باشكال من الناس مختلفي الصور ،

فيذكر معهم ويجالسهم ، ويظهر الاعتقاد فيهم . فادى ذلك الى ان كثيرين من الاوباش تزيوا بما سولت لهم نفوسهم من الازياء المستغربة ، ولبسوا طراطير طوالا ومرقعات ودلوقاً ؛ وعلقوا جلاجل وبهرجانات وعصياً مصبوغة فيها شخاشيخ وشراريب ، وطبلات يدقون عليها ، واخذوا يصرخون ويزعقون ، ويتكلمون بكلمات مستهجنة والفاظ موهمة بانهم من ارباب الاحوال ، حتى كادت العاصمة تصبح عاصمة مجانين ، وشوارعها ودروبها طرقات بيمارستان عظيم . ويقول الجبرتي انه لو طال عمر طاهر باشا هذا لاهلك الحرث والنسل

ولم يكن الجند العثماني قد اشترك مع الالبانيين في ثورتهم على خسرو ، ولو انه كانت لهم متأخرات هم ايضاً . فاستعملهم محمد علي ، من وراء ستار ، لإزاحة طاهر من السبيل ، وحمل من اوعز اليهم مطالبته بتلك المتأخرات ، المرة بعد المرة . فماطلهم طاهر في بادىء الامر ؛ ولكنه صرح لهم في النهاية بانه غير مسئول عن مرتبات الجند الا منذ يوم قيامه على سدة الاحكام ، وانه يجب على المطالبين اذاً ، توجيه طلباتهم الى سلفه . فلم يقنعهم القول ولما كان يوم ٢٥ مايو ، ذهب ضابطان عثمانيان الى سرايه ، وطلبا اليه مرة أخرى النظر في أمر المتأخرات . فرفض . فحمي وطيس الجدال بينهم ، وعلت تهديدات طاهر . فانقض الضابطان عليه ، وطعناه بيطاقاناتهما ، ثم قطعا رأسه وقذفا به من النافذة التي كان جالساً

بجانبها . فما رأى الالبانيون رأس زعيمهم مقطوعاً الا وجنوا غيظاً ، وهبوا للانتقام من العثمانيين . فدارت بين الفريقين معركة هائلة جرت فيها الدماء انهاراً ، وانتهت باحراق السراي . ثم اجتمع زعماء العثمانيين للنظر في الأمر . فقرروا تقليد الولاية رجلا يقال له احمد باشا كان ماراً بالقطر المصري في طريقه الى جدة . فلم يستطع الرفض . ولكنه لشعوره هو وقومه بالقوة الخفية المسيرة الامور ، أرسل في المساء اكابر المشايخ ليحملوا (محمد علي) على الرضاء به . وكان اعتدال محمد علي الظاهري قد امال القلوب اليه وزاده ما انضم الى جنده من جند طاهر باشا بعد قتله ، عزيمة واقتداراً . فرأى انه يستطيع القضاء على حزب العثمانيين . فرفض بلطف وثبات معاً استماع اقوال رسل احمد باشا ، واغتنم قرب معسكره من معسكر المماليك الذين استدعاهم طاهر باشا ، لابرام محالفة معهم . فلما وقعوها وتآخى محمد علي مع البرديسي ، بان جرح كل منهما نفسه وشرب من دم أخيه ، ارسلوا — جميعهم معاً — رسالة الى احمد باشا يكلفونه فيها بالانسحاب ومغادرة القطر . فامتثل الرجل على شرط ان يعطى من الوسائل ما يمكنه من السفر الى جدة . ولكنه تحصن ، مع ذلك ، هو وجماعته في مسجد الظاهر الذي كان الفرنساويون حولوه ، مدة اقامتهم في مصر ، الى حصن دعوه سولكفسكي . فسير اليه المتحالفون الى الباني استولوا عليه عنوة . اما احمد باشا ، فانه أبقي اسيراً ، واما الضابطان اللذان قتلا طاهر باشا ، ثم انضما الى احمد

باشا ليفرا من ثأر الالبانيين لقائدهم المغدور به ، فقطع رأساهما

بعد ذلك أعلن عفو عام باسم محمد علي وابراهيم بك وعثمان بك البرديسي ـ واما الالفي فكان قد توجه الى انجلترا مع الجيش الانجليزي ـ واستولى المماليك على القلعة واحتل الالبانيون القاهرة

وما استتب الامر للمتحالفين الا واخذوا يتجهزون للقضاء النهائي على خسرو باشا . وكان هذا الوالي ـ وقد طارده طاهر باشا حتى الجأه الى الاعتصام بدمياط ـ غادر هذا الثغر وسار الى مصر اول ما بلغته انباء الثورة على طاهر . ولكنه علم ، وهو في الطريق ، انكسار احمد باشا ودخول المماليك العاصمة . فارتد على عقبيه. وما عتمت قوى المتحالفين تحت قيادة محمد علي والبرديسي ان أتت وعددها عشرة آلاف مقاتل ، وشددت عليه الحصار . فاستولت على دمياط عنوة ، ونهبتها . فلجأ خسرو الى حصن عند مصب النيل . ولكنه ما لبث ان نزل على حكم اعدائه ووقع في أسرهم . فارسله الفائزون الى مصر وأقاموا ابراهيم بك عليه حارساً

في هذه الاثناء وردت اوامر الاستانة التي كان طاهر باشا بعث يطلبها بعد المناداة به قائمقاماً . فهل تظن ايها القارىء ، انها تضمنت توبيخاً على ما اقترف ضد خسرو باشا ، واليها الرسمي ، او اية اشارة كانت اليه ؟ ولا في المنام . ولكنها قضت



امين بك
المملوك الشارد



ابراهيم باشا
بلباسه العسكري

بالاعتراف بولاية احمد باشا ، الذي كان ، اذ ذاك ، في السجن يندب سوء طالعه

على ان الاستانة ، لما بلغتها تفاصيل الحوادث كلها ، أحست بأنهـا ان هي سكتت على تحالف المماليك والالبانيين ، ضاعت مصر عليها . فلملافاة هذا الخطر الداهم ، رأت ان ترسل والياً جديداً من لدنها ، وتعززه بألف رجل — كأن الف رجل قوة يؤبه لهـا امام اربعة آلاف الباني وخمسة آلاف امير مملوك

وكان اسم الوالي الجديد علي باشا الجزائرلي . وهذا اللقب اتاه من انه بدأ حياته العملية بصفة مملوك باي الجزائر

واما الاعمال التي استحق من اجلها ان يرفعه الباب العالي الى منصب ولاية مصر الرفيع ، فهي انه فر من قصر باي الجزائر ، لدى موت مولاه ، الى سفينة حسن باشا ، امير الاسطول العثماني ، مهدى اليه من صهر باي الجزائر ، الذي أبى الاحتفاظ به لان اخا علي المدعو سعيداً كان في حيازته واشمأز صهر الباي هذا من الجمع بين الاخين . فلما كبر علي جعل مولاه الجديد الديوان يعينه والياً على طرابلس الغرب — وكانت في قبضة اخي حموده باشا والي تونس — فذهب علي اليها وحاصرها واستولى عليها بولس من أهلها . فكافأهم على خدمتهم له بنهبها وسلبها وارتكاب كل أنواع الفظائع فيهـا . ولكن اخا حموده باشا عاد اليها بقوة . فلم يجسر علي على مقابلتـه ، وفرّ بخزي مصطحباً معه غلامين بصفة رهينتين . ولخوفه من الذهاب

الى الاستانة ، لتوقعه عقاباً صارماً فيها ، توجه الى مصر ، والتجأ الى مراد بك ، زعيم المماليك في تلك الايام . فما استقر لديه الا ووردت اوامر الديوان بنفيه الى قلعة ابريم في النوبة. ولكن علياً ، بدل الذهاب اليها ، قصد مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ، ومعه غلاماه . فعرفه بعض حجاج طرابلسيين . وتربصوا به حتى ضبطوه وهو متلبس بفاحشة مع الغلامين في دائرة الحرم . فحكم عليه امير الحج الدمشقي بالضرب بالسياط حتى يموت . ولكن بعض الامراء المصريين توسطوا له ، وهو تحت العصا ، وحملوا الامير على ابدال بقية الحكم بحلق لحية الجاني ، تخجيلا له وتحقيراً — لان اللحية كان ينظر اليها اهل ذلك العصر بانها علامة الرجولة — فنجا علي من الموت بذلك ، وعاد الى كنف مراد . فلما داهمت الحملة الفرنساوية مصر خرج مع مراد للقتال ، ولكنه هابه ، ونجا بنفسه مع من فر من المماليك الى سوريا ، واقام هناك الى ان عاد برفقة الصدر الاعظم يوسف باشا ، فارسله هذا الصدر ، بعد هزيمته في عين شمس ، الى الاستانة ، ونال له صفحاً عما مضى . فاقام علي في الاستانة ، تحت رعاية الوزير ، لا يدري التاريخ له عملا ، حتى عينته هذه الرعاية والياً على مصر ، في ظروف كانت تقضي منتهى التبصر في التعيين

فنزل علي باشا الى الاسكندرية فى ٨ يوليه سنة ١٨٠٣ وارسل اخاه سعيداً للاستيلاء على رشيد فتمكن سعيد من ذلك بخدعة .

فزحف محمد علي والبرديسي تواً اليها ، واستردادها عنوة . وأرسلا سعيداً مأسوراً الى ابراهيم بك الكبير . فلما بلغ نبأ ذلك علي باشا ، أوجس خيفة ، وشرع يتحصن في الاسكندرية ، وعزم البرديسي ، فعلا ، على محاصرته فيها . ولكنه ، وهو يتأهب لذلك ، اذا بشيخ جاوز المائة من العمر حضر للسلام عليه في خيمته . وكان البرديسي يعتقد ببركة الشيوخ امثاله . فاراد ان يقف منه على مصير المحالفة بين المماليك والالبانيين . فاجابه الشيخ : « ستقع فتنة كبيرة في عيد الاضحى ، وستجري الدماء فيها ! » فسأل البرديسي : « وماذا يسبب هذه الفتنة ؟ واي دم يسيل فيها ؟ ولمن يكون الفوز ؟ » فاجاب الشيخ : « ان الذئاب ستفترس الاجانب ! »

فوقعت هذه الاجابة من قلب البرديسي موقعاً أليماً ؛ لانه لم يكن يجهل ان اهل البلد كانوا يسمون المماليك بالاجانب . وتوقع فناء طائفته

واتفق ان النيل شح فى ذلك العام . فغلت الاسعار ، وبات امر تموين الجنود متعذراً ، ودب الجوع الى صفوفهم . فضجوا وتذمروا ، وبات من المحال متابعة الاعمال الحربية بهم . فاجتهد محمد علي فى تفهيم البرديسي ذلك . وبعد ان طلب منه بتكرار مرتبات جنوده ، ورأى طلباته تذهب ادراج الرياح ، اقتلع خيامه ، وسار بألبانييه الى مصر . فبلغها في اواسط سبتمبر . فاضطر البرديسي الى العدول عن مهاجمة علي باشا الجزائرلي في الاسكندرية ، وعاد هو

ايضاً ، بمماليكه الى القاهرة ، واذا بالخزائن فارغة ، وليس لدى ابراهيم بك الكبير ، الذي كانت الادارة الملكية أوكلت اليه اثناء تغيب محمد علي والبرديسي ، ولا اليسير من النقود . وكان – مع ذلك – لا بد من دفع مرتبات الجنود ، والا ثاروا . فلم يجد البرديسي مفراً من فرض ضريبة جسيمة على اهل العاصمة نفرت منه القلوب .

فلما توقفت الحركات العسكرية ، رأى علي باشا الجزائرلي ان يغتنمها فرصة لدسائس يدسها بين المتحالفين يفرق بها بينهم ويبلغ منهم مرامه . فارسل من فاوض محمد علي سراً وأطمعه فيما لو تخلى عن المماليك . وارسل من فاوض المماليك سراً ، ووعدهم خيراً فيما لو تخلوا عن الالبانيين . ولما كانت فرنسا وانجلترا أخذتا تتزاحمان على النفوذ فى مصر وعلى استمالة البرديسي ، اطلع محمد علي هذا الامير على ما فاتحه فيه علي باشا الجزائرلي . فحمله بذلك على زيادة الوثوق به والانقياد الى مؤثراته ، ولم يجد بعد ذلك صعوبة في اقناعه بان الالتجاء الى هذه او تلك من الدولتين المتنازعتين النفوذ ، ينشىء خطراً هائلا على مصالح الجميع . ثم عرض عليه فكرة العمل من باب الحيلة على اخراج علي باشا من مركزه الحصين بالاسكندرية . فوافقه البرديسي . فحمل محمد علي العلماء – وكانت قد استمالتهم مظاهر تقواه واعتداله – على الكتابة الى الجزائرلي واستدعائه الى مصر ، مؤكدين له ان الكل يرغبون سراً في حضوره ، وان

بمجرد حضوره يزيل كل صعوبة ويقوم كل معوج

فصدق الرجل الكلام واستعد للسفر ، وبعث ينبيء الامراء بذلك . فاستعجل المماليك حضوره . ولكنهم لعلمهم بان الباب العالي كان قد أرسل اليه امداداً متتابعة ، رسموا له بألا يصطحب معه سوى الف رجل ، وان يسير بهم من دمنهور الى القاهرة على شاطيء النيل الايسر . فوعدهم علي باشا بالامتثال لمرسومهم ، وقام من الاسكندرية في ٢٣ دسمبر سنة ١٨٠٣ ، ولكن بالفين وخمسمائة من المشاة ، وخمسمائة فارس . وقبل الوصول الى دمنهور ، حاول الاستيلاء على رشيد مفاجأة . فلما وجد حاميتها يقظة ، وارسل الامير المملوك قائدها يستفهم منه لماذا حاد عن الطريق المرسوم له ، اعتذر ، واجاب انه انما فعل ذلك ليقصر المحجة ، ولكنه لا ينوي لرشيد سوءاً . فصدقوه . غير انه ما انسدلت سدول المساء الا وقبض خفراء المدينة على جنديين من جنود علي . وقادوهما امام يحيى بك الامير المملوك . فسألهما عما يريدان . فقالا انهما يحملان كتباً من علي باشا الى عمر بك قائد الألبانيين . وكان عمر بك حاضراً . ففض الكتب علانية . واذا هي ملأى وعوداً يبذلها علي باشا للالبانيين ليفصلهم عن المماليك . فاستشاط الحضور غيظاً ، واستعدوا لقتال المخاتل . واذا به قد ظهر امام مدينتهم ، وهو يعتقد ان كتبه عملت عملها من التغرير . فوجد القوم متربصين خارج الاسوار . فلم يجسر على مهاجمتهم ، وعاد صاغراً ، الى الطريق التي

رسمت له . وليعوض جنده من عدم الاستيلاء على رشيد ، سمح لهم بنهب القرى في السبيل .

وكان القوم في مصر مطلعين على جميع حركاته . فلما علموا انه اقترب من العاصمة ، خرج البرديسي اليه ومعه محمد علي والبانيوه ، وعسكروا امامه بين شلقان وشبرا . ولما جن الليل ، هاجموا معسكره . فذعر جنده وفروا بدون قتال . فتذمر علي من هذه المعاملة . ولكن اعداءه لم يبالوا به ، ولم يجيبوه بشيء . فاراد الخروج من معسكره والدخول الى القاهرة . فمنعوه . فسأل عن سبب هذا التصرف . فقالوا له : « لانك اخليت بالشروط » فاجاب معتذراً بان معظم الجند الذي معه يقصد الحج ، وابى ان يتركه حتى يقبض متأخراته . فما صدقه أحد وقال له البرديسي : « انك ، اذا استمريت مصطحباً معك كل هؤلاء العساكر فلا بد لي من معاملتك كعدو » . فطلب علي حينئذ ان يسمحوا له بالعودة الى الاسكندرية . فرفضوا . فوجد ان القتال بات محتما ، واخذ يستعد له . ولكن عسكره تخلوا عنه قائلين ان اوامر الباب العالي لا تقضي عليهم بالقتال ، وان قلة عددهم لا تجعل الاقدام عليه محموداً

فقام علي من ساعته ، واصطحب معه ابن اخته ونفراً يسيراً ، وقصد خيمة البرديسي . وسلم نفسه اليه . فاكرم الامير وفادته . ثم اقبل على جيشه ، فجرده من سلاحه ، وسيره مهيناً الى التخوم السورية ، غير مستثن سوى ستة من رؤسائه تعرفهم بانهم من

اصحاب السوابق في المشاغبات والاضطرابات ، فقطع رؤوسهم . ولكن علي باشا ، بالرغم من أنه اصبح فريداً ، وانه في ضيافة البرديسي ، أبى الا الاستمرار على دسائسه . فكتب رسالتين ، احداهما الى عثمان بك حسن ،احد كبار الامراء المماليك ، والاخرى الى الشيخ السادات . ففي الاول وعد عثمان بك بان يجعله وكيله اذا هو انشق على اخوانه ، وانضم اليه ، وفي الثانية شرح للشيخ كيف يمكنه اثارة ثائرة الشعب على المماليك . فوقعت الرسالتان في يد عثمان بك البرديسي ، واوقدتا في قلبه غيظاً لا حد له . فاستدعى علي باشا اليه ، ووضعهما تحت نظره . فغض الشقي عينيه خجلا . ولما أقبل المساء اتاه من قبل البرديسي رجل وقال له : « ان الخيل معدة ، وهي في انتظارنا » فقال علي : « لماذا ؟ والى اين تريدون توصيلي ؟ » قال : « الى سوريا . فان سلوكك جعلك لا تستحق ان تستمر بيننا ! »

فاركبوه مع ابن اخته وتوابعه ، واحتاط بهم جمع قوي من المماليك . فلما بلغوا ناحيه القرين وجلسوا ليستريحوا ، ما كان من المماليك الا انهم صوبوا بنادقهم واطلقوها عليهم . ثم اجهزوا عليهم بالبلطقانات . فاصيب علي باشا برصاصتين ، وبينما هو يموت ، أخرج كفنه من خرجه ـ وكان لا يفارقه ابداً ـ ورجا قاتليه بألا يحرموه من الدفن

على ان محمد علي وألبانييه ـ ولو انهم ساعدوا على الايقاع

بالرجل ، بل كانوا هم المحرضين على الايقاع به ـ لم يتداخلوا في قتله ، وما فتئوا واقفين وراء ستار

ولما عاد المتحالفون الى القاهرة ، بلغهم نبأ وصول رسول من لدن الباب العالي . فذهب وفد من البكوات الى الاسكندرية لاستقباله ، وعادوا به باحتفال عظيم . فلما استقر العاصمة ، أخرج الفرمان الذي حضر به وناوله الى القاضي ، فقرأه بصوت عال . افتدري ايها القارىء الكريم ، ماذا كان مضمونه ؟ انه كان يؤيد علي باشا الجزائرلي على ولاية مصر !!!

غير ان البرديسي ومحمد علي ان هزآ ا بمضمون ذلك الفرمان السخيف ، ما لبثا ان وجدا من صروف الايام سبباً لقلق اخطر بكثير من الذي تلافياه بموت علي باشا الجزائرلي

قلنا ان الجيش الانجليزي لما انجلى عن الاسكندرية اصطحب معه الى انجلترا محمد بك الالفي ، زعيم المماليك الثاني ، لتتخذ الحكومة الانجليزية منه آلة لتنفيذ مراميها في القطر المصري في مستقبل الايام . فرأت هذه الحكومة في اوائل سنة ١٨٠٤ ان الوقت حان لذلك . فاعادت الالفي الى القطر ، ومعه تحف واموال كثيرة ليشتري بها الذمم والقلوب

فما بلغ خبر نزوله مسامع منافسه عثمان بك البرديسي الا واظلمت الدنيا في وجهه . لان الالفي كان ، لسماحة كفه ، محبوباً في الاقاليم . وكان اتباعه ومريدوه من المماليك كثيرين . ولم يكونوا

مدة غيابه ، يطيعون البرديسي الا بتـذمر ، وكثيراً ما اطلع الالبانيون هـذا الامير على ما كان اولئك الاتباع والمريدون يراودونهم عليه من قتله ، فيزكون بذلك كرهه لمنافسه البعيد .
وبلغ البرديسي في الوقت ذاته ان الالفي الصغير ـ الذي كان الالفي الـكبير تركه على رأس حزبه لما غادر الديار ـ ما سمع بعودة مولاه الا واستدعى رجاله ، وامرهم بالاستعداد للانضمام الى سيدهم .
فزاد اضطرابه ، وقصد محمد علي ـ وكان ، منذ ان تحالفا معاً ، قد اتخذه ناصحاً ومرشداً ـ واستفتاه فيما يجب عمله . فـدامت مداولاتهما يومين كاملين . وكان محمد علي قد نظر الى الحادث الجديد بعين بصيرة ونظر ثاقب ، ووزن بروية حقيقته ونتائجه فادرك ان الالفي انما يعني اصبع الانجليز ، وان هذه الدولة لم تعده الى القطر ، الا لاغراض خفية لم يكن يمكن ان تكون سوى اعادة سلطة المماليك ووضع زمامهم في يد الالفي محسوبها ، مقابل امتيازات تنالها منه واتفقت معه عليها نظير مساعـدتها له . وانه اذا انضم الالفي الى البرديسي ، وعملا معاً باخلاص وبمساعـدة الانجليز ، فقد خسر ، هو ، الصفقة ، وهلك ، او اضطر الى مغادرة القطر .
فعزم ـ في الحال ـ على منع حدوث مثل هذا . وما اتاه البرديسي مسترشداً الا وأشار عليه بوجوب القضاء على الالفي ، قبل ان يتمكن الالفي من القضاء عليه بمساعدة الانجليز .
فاقتنع البرديسي بذلك ـ وكان بغضه للالفي يعمي بصيرته

عن مصلحته ومصلحة قومه ـ وتعاهد مع محمد علي على العمل سوية لتنفيذ ما صمما عليه. فانتقل، منذ الليلة التالية، الى بر الجيزة، وباغت الالفي الصغير المعسكر هناك. فتخلى مدفعيو هذا عنه، ولم يبق معه الا بضعة رجال هرب بهم على اجنحة السرعة. فتحول محمد علي الى فريق من مماليكه كانوا راقدين في امبابه، وداهمهم في نومهم، وقتلهم عن آخرهم

وفي اثناء ذلك كان الالفي الكبير يصعد النيل في مركب القنصل البريطاني، الخافقة الراية البريطانية عليها، وتتبعه طائفة من القوارب، تحمل التحف والاموال التي جاء بها من بلاد الانجليز. فلما بلغ بها منوف رأى مراكب موثوقة بألبانيين تتقدم لمقابلته. فسأل رجاله الجند: «ماذا تطلبون؟» فاجابوا: «نطلب محمد بك الالفي!» فقال رجاله: «ها هو هنا!». ولكن الالبانيين لم يتعرضوا له، بل تحرشوا بالقوارب الحاملة التحف والاموال وشرعوا ينهبونها. فرأى الالفي، حينذاك انه يحسن به النزول الى البر. فنزل وقصد ناحية كانت قبيلة بدوية ضاربة فيها خيامها. فاستقبلته امرأة منها، وأعطته حصاناً ودليلين هجينين، ابتعد بهما من الغد، وتبعه مماليكه سيراً على الاقدام. وبينما البرديسي يضرب في طول القليوبية وعرضها للظفر به، بلغ الالفي الخانقاه. فهاجمه فيها جمع من العرب. وما نجا الالفي منهم الا بفضل سرعة حصانه. وذهب هائماً على وجهه

فعاد البرديسي الى القاهرة ، وهو طروب بفوزه . ولكن عمله ضد أخيه أساء طائفة من أصدقائه . فابتعدوا عنه . فنظر الرجل حوله ، واذا با كثر من نصف المماليك الذين كان يعتز بهم قد فارقوه اما للانضمام الى الالفي وأما لاستنكارهم عمله . فاغتنم الألبانيون الفرصة ، وطالبوه بمتأخرات ثمانية شهور من رواتبهم ، وضجوا حوله ، وهددوه بشر الاعمال اذا هو ماطل في الدفع . وما هي لحظة الا وحضر محمد علي نفسه على رأس فرقته ، ولكنه تظاهر انه سوق الى ذلك سوقاً ، وانه انما حضر للتوفيق بين الفريقين

. فوعد البرديسي بالدفع في الغد . وفرض في الحال مالا جسيماً على كل « الشراقوه » والفرنج المقيمين في القاهرة . فاحتج القناصل . ولكن البرديسي لم يبال ، وجمع الضريبة عنوة . غير انها لم تف بطلبات الجند . ففرض البرديسي ضريبة فادحة على أهل العاصمة . فضجوا وثاروا ، وقتلوا نفراً من المحصلين ، وتجمهروا في الازهر وحوله . فتداخل محمد علي في الأمر ، وذهب بمفرده الى الثائرين ولاطفهم ، ووعد العلماء بان الضريبة المفروضة لن تجبى . فهدأت الثورة في الحال وعاد الاقوام الى منازلهم وهم يدعون له . فبات محمد علي مضطراً الى منع البرديسي من جباية تلك الضريبة . وكان بعض امراء المماليك قد اخذوا يسيئون الظن في صداقته لهم ، ووجدت اسباب حملت محمد على على الاعتقاد بان ابراهيم بك الكبير ، على الاخص ، أدرك غامض نياته ، وانه أوعز الى مماليكه

بالعمل على الايقاع به خيانة وغدراً . ورأى المكدوني من جهة أخرى ان البرديسي قد فرغ من لعب الدور الذي خصصه له . فلم ير بداً من نزع اللثام عن وجهه ، والبروز في حقيقة مقاصده امام أنظار أعدائه

فاستمال الى نفسه ، في الاول ، عثمان بك حسن ومماليكه الناقمين على البرديسي . وفي ظهر اليوم الثاني عشر من شهر مارس سنة ١٨٠٤ سيرهم للاحاطة بمنزل ابراهيم بك الكبير ، ووجه جنوداً . عديدة للاحاطة بدار البرديسي وكان يدافع عنها جمع من الترك ، استمالهم محمد علي اليه برشوة . فحولوا مدافعهم على من في الدار بدلاً من تحويلها على الالبانيين ، وشرعوا يدكون جدرانها دكا . فامر البرديسي رجاله بامتطاء جيادهم ، وحمل ما ثمن وخف من أمتعته على ظهور هجن ، ثم فتح الابواب بغتة . وانقض على صفوف الالبانيين المحيطة بداره ، ففتح له ولمن معه منفذاً فيها ، وعدا برجاله وامتعته نحو البساتين . وابراهيم بك الكبير من جهته ، تمكن من الانسلال ، عند الفجر من منزله ، الى ساحة الرميلة ، وفر منها الى الصحراء . ولما علم المدفعيون المقيمون في القلعة ان الامراء أسيادهم فروا ، انقضوا على دار السكة ، فنهبوها . ثم ولوا — هم أيضاً — الأدبار من باب الجبل . فلم يبق في القاهرة من سلطة سوى سلطة محمد علي . ولو كان قليل التبصر كطاهر باشا ، لاقتدى به وتسلم زمام الحكم . ولكنه كان داهية من أكبر دواهي الزمان . ولم يكن ليجهل ان الفرص لا تزال غير مناسبة ، وانه

يجدر به ان يستمر عاملا على انضاجها

ففي نفس اليوم الذي طرد المماليك من القاهرة فيه : صعد الى القلعة ، وانزل منها خسرو باشا المسجون فيها ليعيده الى كرسي الولاية . ولكن الزعماء الالبانيين زملاءه ، بتحريض من ولدي اخي طاهر باشا ، ابوا عليه التعيين . فانزلوا خسرو عن ذلك الكرسي ، وأرسلوه مخفوراً الى رشيد ، ومحمد علي لا يمانع ، لانه لم يكن ليهمه البتة ان يتولى خسرو ؛ وانما كان يهمه ان تبقى مقاصده تحت ستار وان يؤمن الباب العالي بولائه ، ويزداد تعلق العلماء به لاعتداله

فانضم الى الزعماء في اجتماعهم للتداول فيمن ينتخبونه للولاية فاجمعت آراؤهم على تعيين خورشد باشا محافظ الاسكندرية المولى عليها من قبل خسرو الوالي المخلوع . وكان خورشد آخر من تبقى في القطر ممن يصح ان تتجه اليهم الابصار . فاذا جرب ولم يفلح ، هو أيضاً ، اصبح من السهل حمل القوم على انتخاب محمد علي

فذهبت فرقة البانية واتت بخورشد من الاسكندرية في ٢ افريل ، وفي ٢٨ منه اتاه فرمان التثبيت من الاستانة

وكان خورشد رجلا اذكى ممن سبقوه وأشد مراساً . فحاول جهده للخروج من قبضة الرجل القدير الذي اراد تحريكه على المسرح كما حرك عليه اسلافه . ولكن محمد علي لم يمكنه من ذلك ،

ووقف له بالمرصاد ، يستفيد من كل غلطة يرتكبها ، لينفر منه النفوس ، ويثير عليه الضغائن

فما استقر خورشد في كرسيه الا ورأى المال يعوزه . فأمر بتحصيل الميري عن السنة كلها ، مقدماً ؛ فنفر هذا الاهالي منه . ثم شرع يبحث عن كل من له علاقة بالمماليك ، ويصادره . ولكن المماليك ثأروا لمريديهم ولانفسهم بمنع الوارد من غلال واقوات عن العاصمة. فجاعت وزاد جوعها في نفورها من خورشد ، وازدادت امام خورشد صعوبة الحصول على المال اللازم . فما كان منه الا انه ارسل يوماً واستدعى اليه في القلعة الست نفيسه ، أرملة مراد بك ـ وكانت لفضلها وبرها وتقواها محبوبة ومحترمة جداً من الجميع ـ واخذ يتذرع بحجج شتى لاستخلاص نقود منها . فبلغ الامر مسامع القاضي ومشايخ الازهر . فاسرعوا الى الوالي ، وبينوا له مقدار الخطأ الذي ارتكبه . فادعى ان نفيسه هانم تفسد عليه جنوده في مصلحة المماليك ، وتعدهم ان هم انفضوا عنه بدفع مرتباتهم لهم . ففاتح المتعممون الست نفيسه في ذلك . فقالت : « انه لم يعد لي بين المماليك لا اب ، ولا زوج ، ولا اخ ، فبأي داع اخدم مصلحتهم ؟ اني ارى ان كل هـذا تحايل لابتزاز اموال مني ليس لديّ منها ظلها . لاني قد اصبحت في حال لا تمكني من القيام بواجبي نحو نفس من خدمني ويخدمني ! » فعاد المتعممون الى خورشد ، واجتهدوا في حمله على اطلاق اسيرته . فابى وبالرغم من الحاحهم

وتوسلهم ، اصر على الاباء . فنفروا حينذاك منه ، وقالوا له ان اصراره هذا انما يعتبرونه امتهاناً منه لكرامتهم . فتداخل بعض كبار المرتبة في الشأن ، وانتهى الامر بتصريح خورشد للست نفيسة بالاقامة في بيت الشيخ السادات . وكانت عديله هانم ، بنت ابراهيم بك الكبير ، قد لجأت اليه ، اول ما بلغها ما اصاب نفيسه هانم ، خشية ان تصاب بمثله

ولما ادرك خورشد ان معاملته للست نفيسة زادت في ابعاد القلوب عنه ، بدون ان تجديه نفعاً ، لجأ الى وسيلتين اخريين للحصول على نقود . فجمع الوجاقلية وفرض عليهم الف كيس وابقى بعضهم لديه رهائن . ثم فرض خمسمائة كيس على الاقباط ومائة وخمسين كيساً على المسيحيين السوريين المقيمين بمصر . ومع ان «ميري» السنة الجارية لم يستطع تحصيله ، امر بتحصيل « ميري » السنة التالية . واخيراً فرض ضريبة على ارباب الحرف والصنائع في العاصمة . ولكن هؤلاء ثاروا في الحال ، واحتشدوا في الازهر ، وجاهروا بالتمرد والعصيان . فاضطر خورشد الى تسيير مناد في المدينة ينادي بان الفقراء يعفون من دفع الضريبة ـ ولم يكن بين ارباب الحرف والصنائع من غني البتة

على ان عدم وجود نقود عند الوالي جعله لا يستطيع دفع رواتب الجند . وعدم حصول الجند على رواتبهم ادى بهم الى التعدي على الاهلين والتجار وسلبهم . فنجم عن ذلك ان التجار

اغلقوا حوانيتهم ، والاهلين امتنعوا عن الخروج من منازلهم .
فوقفت حركة الاعمال ، وبدت المدينة كأنها مهجورة ، لا يتجول
فيها سوى الجنود والالبانيين . فرأى خورشد ان يصادر نساء
المماليك ، اللائي كن رهائن لديه . فابتز منهن الفاً ومائتي كيس .
وكان قد اتى فرمان من الاستانة يتضمن شكراً لمن ساعد على
البطش بالمماليك . فعقد خورشد ديواناً كبيراً لتلاوته . وبعد الفراغ
من قراءته — استدعى العلماء الى قاعة الاستقبال ، وألبسهم فراو
من سمور كالمعتاد . وألبس كذلك مدير دار السكة ، ومراقب
عموم المالية واثنين وعشرين وجيهاً من الاقباط . ولكنه طلب
اليهم في اليوم التالي ، مقابل ما نالوا من اكرام على يديه ، ان يدفعوا
له الف كيس على سبيل العارية الاجبارية

هذه الحال المؤلمة استمرت الى ان مل المماليك البقاء على
مناوشات لا طائل تحتها ، حول القاهرة . فاقتلعوا خيامهم وساروا
الى الصعيد . وكان الخوف كله — حتى هذا الانسحاب — في ان
ينضم رجال الالفي الى رجال البرديسي ورجال ابراهيم بك . فان
الالفي — وكان بعد ما اصابه من نكبة ، مختبئاً عند شيخ من مشايخ
عرب الشرقية — ما دري بما حصل فى مصر للبرديسي الا وخرج
من مخبأه وأتى على رأس جانب من رجاله ، واقام في قرية على ضفة
النيل اليمنى على مسيرة يومين من القاهرة . واخذ من جهة ، يسعى
الى التقرب من البرديسي ، ويراسل ، من جهة أخرى ، خورشد



الأمير بشير الشهابي



السلطان محمود الثاني



مؤسس الوهابية

باشا في السر للوصول الى اتفاق معه . فاستقبل خورشد رسوله بحفاوة واهداه محمد علي جوادا مطهماً

وبينما الوالي وزعيم الالبانيين يجتهدان في ابقاء الالفي على الحياد ، كان محمد علي لا يفتر عن مقاتلة مماليك البرديسي في المعتمدية ، والايقاع بهم والرجوع يومياً الى القاهرة برؤوس بعضهم مشكوكة على رؤوس الحراب . ولما ابتعد المماليك نحو تخوم القليوبية ، ليحملوا جند الولاية على الخروج اليهم من استحكاماتهم . لم يجسر سوى محمد علي على اقتفاء آثارهم ومطاردتهم من القليوبية الى المنوفية . فلما ان فعل ذلك ، عاد الى القاهرة لاضطراره الى دفع مرتبات جنوده ؛ واذ كان يعلم ان مطالبة خورشد بها لا تجدي نفعاً ، قبض على اثنين من اذنى وجهاء المدينة ومن محسوبي الوالي ؛ ولم يخل سبيلهما حتى دفعا بين يديه خمسمائة كيس

غير ان مصادرة خورشد نساء المماليك في القاهرة اغضبت الالفي وجعلته ، بالرغم من ان خورشد قلده ولاية جرجا يعلن عداءه للوالي وينضم في قتاله الى باقي المماليك اخوانه . فأرسل الى خورشد ، في هذا المعنى ، رسالة ضمنها من المطاعن المرة عليه ما اطار عقل الرجل غضباً ، وحمله على الامر بقطع رأس الرومي المسكين الذي حمل تلك الرسالة اليه

وعلى ذلك ، زحف المماليك من كل جهة ، الى العاصمة ؛ ولكن بدون تفاهم بينهم . فخرج محمد علي الى مقابلتهم ؛ وما فتىء

يناوشهم مناوشات عنيفة يحاول بها القاء الاضطراب في صفوفهم ، حتى وقع مع ثمانمائة من اتباعه في كمين في جهة البساتين ، لم ينج منه الا باعجوبة . ولكنه ثأر لنفسه بعد قليل بان ابلغ عثمان بك حسن والألفي انه ملّ الحال ، وانه اذا أبى خورشد مصالحة المماليك ، فانه ، هو محمد علي ، سيتقرب منهم . فصدقاه واغفلا الاحتراس . فسار محمد علي بألف رجل تحت جنح الدجى الى طره ؛ وهاجم اعداءه وهم نائمون ، واثخن فيهم ، ولولا ان الالبانيين خالفوا اوامره واطلقوا الرصاص قبل اتمام الاحاطة بالقرية لما نجا احد من المماليك المبيتين

فحملت هذه الوقعة المماليك على الابتعاد عن القاهرة ، كما قلنا ، بعد ان بالغوا في تضييق الخناق عليها ؛ وعاد الفلاحون الى جلب الاقوات لها ؛ فزالت شبه المجاعة التي كانت اصابتها ، ونسب اهلها الفضل في ذلك الى محمد علي بحق

وكان قد ورد على خورشد باشا ، قبل ذلك بيومين ، أمر من الاستانة يقضي بارسال خمسمائة رجل الى ينبع لدفع الوهابيين عنها ؛ وورد على زعماء الالبانيين فرمان استصدره خورشد الراغب في التخلص منهم ، يأذن لهم بالعودة بجنودهم الى بلادهم . فرضي بالامر بعضهم وازمعوا الرحيل . ولكن الجند منعهم الا اذا دفعوا لهم متأخراتهم . فكادت تقع فتنة ، لولا ان خورشد ، ليتخلص من اولئك الزعماء وعسكرهم ، دفع ، هو نفسه ، المتأخرات . على

ان الزعماء عدلوا حينذاك عن الرحيل . ولم يجن خورشد من تسرعه سوى خسارة المال الذي دفعه

ووقع ، بعد انسحاب المماليك ، حادث اظهر مقدار ما بلغ اليه نفوذ محمد علي في نفوس جنوده بعد انتصاراته المتتابعة على المماليك . ذلك ان جنديين من الارناؤوط تشاجرا مع فرنساوي يقال له روجيه ، كان رئيس الصيادلة في الحملة الفرنساوية ، وتخلف عنها في مصر ، وارادا قتله . فعاجل الفرنساوي احدهما بضربة اودت به ، واطلق خادم من خدمه الرصاص على الثاني فجرحه جرحاً خطيراً . فاجتمع العساكر وارادوا نهب الحارة ، وكثر الهرج والمرج . ولكن الخبر بلغ الى محمد علي . فحضر الى محل الواقعة ، ماشياً على قدميه ، وليس معه الا نفر قليل ، وامر بفتح باب الحارة ، لئلا يكسره الجند ، فيحدث ذلك ما لا تحمد عقباه ؛ ثم وضع خفراء عليه ؛ ومنع العسكر الهائج من ارتكاب اية معصية كانت . وما زال بهم من جهة ، وبالقنصل الفرنساوي من جهة أخرى حتى حمل القنصل على دفع اربعة الاف قرش لاخ المقتول ، على سبيل الدية وحمل اخا المقتول على قبولها ، والجند على الاكتفاء بها ثأراً

ثم وقع في خلده أن يرى مقدار ما بلغت اليه منزلته عند الشعب . فاصطحب ذات صباح احمد بك ، الذي كان يقاسمه الامرة على الارناؤوط ، وذهبا معاً الى الوالي ، واظهرا له الرغبة في الرجوع الى بلادهما . فطار عقل خورشد فرحاً واعتبر التخلص من

محمد علي غنيمة كبرى . ولما كان قد عينه ، منذ بضعة ايام حاكما على جرجا اقاله من هـذه الوظيفة ، وعين سلحداره مكانه فيها . وذاع في الشعب الخبر ، وتأكيداً لحقيقته ، شرع محمد علي في بيع املاكه ودوابه

فاضطربت حينذاك المدينة عن بكرة ابيها . وأقفلت الاسواق والدكاكين ، وازدحم الناس في الشوارع والدروب ، وبدت على القوم امارات الاسف الشديد على رحيل الرجل الذي كانوا يعدونه الحامي الوحيد لبيضة أمنهم من تعدي الاجناد عليها . وكاد يخامرهم يأس على اعمارهم . وكأني بالعسكر ارادوا ان يثبتوا لهم حقيقة تقديرهم ، فما علموا ان محمد علي راحل الا وانتشروا في الاحياء يفسدون ويخطفون ، وكاد الدم يُهدر

ولكن محمد علي ، وقد اكتفى بما رأى من منزلته في القلوب ، نزل وطاف المدينة على قدميه ، مهدئاً المخاوف ، زاجراً الجند ، ومعاقباً بالقتل كل من تجاوز منهم حد المحتمل ، وارهاباً للاشرار امثال المعاقبين ، أبقي الرؤوس المقطوعة عدة ايام معلقة على الابواب . وانتهى الامر بان سافر مائتا الباني ومعهم احمد بك . واما محمد على فانه اعلن بقاءه ارضاء للرأي العام فجعل لنفسه بذلك منة في رقبة الشعب

فلما تأكد خورشد من عدوله عن السفر ، رأى ان يستخدم ميزاته العسكرية في الحملة التي صمم على تسييرها ضد المماليك فيبعده

بالبانييه عن العاصمة ، ويغتنمها فرصة للتخلص منهم بضربة تصيبهم على ايدي جنود غيرهم ارسل يستدعيهم من سوريا وغيرها

فقلد محمد علي قيادة ثلاثة الاف رجل بين مشاة وفرسان وسيره اثر سلحداره الزاحف بمقدمة الجيش وقدرها اربعة الاف جندي

فلما أحس المماليك بالقوى المتقدمة لقتالهم ، ادركوا ان تفرقهم ضارة بهم جداً ؛ وأخذ عقلاؤهم يسعون الى مصالحة البرديسي والالفي ؛ واتفقوا على ان يتقابل هذان الزعيمان في جزيرة قبالة طراء أقيمت فيها خيام لهذا الغرض . فأتاها البرديسي أولا ؛ وما لبث ان نزل الالفي اليها أيضاً . ولكنه لم يخط بضع خطوات فيها الا ورأى على الشاطىء ثعباناً مقطوعاً نصفين . فتطير وظن ان في الامر خيانة وغدراً ، وعاد من حيث أتى . فاستمر الشقاق بين المماليك على ما كان

وفي الاثناء تقدمت فرقتا السلحدار ومحمد علي حتى بلغتا المنيا ، وكانت في يد المماليك . فحاصرها القائدان الالبانيان ستة وخمسين يوماً ، واستوليا عليها ، بعد عناء شديد ، وبعد عدة وقعات ظهرت فيها قلة جدارة السلحدار وكثرة كفاءة محمد علي

على انه بينما كانت القوات الالبانية تبلي هذا البلاء الجيد ، كان خورشد باشا يسعى سعياً حثيثاً ، تساعده الاستانة فيه ، الى هدم كيان تلك القوات ، وتفريقها ايدي سبا . وذلك باستحضار

قوات أخرى الى القطر تحل فيه محلها . تلك القوات الجديدة كانت تعرف باسم الدلاة أوالدالتية أي المجانين بالتركية.وانما سموا كذلك لشهرتهم بالبسالة المتناهية . وكان معظمهم أكراداً ، سلاحهم سيف وطبنجتان وقرابينة. وكانوا يلبسون على رؤوسهم طراطير مخروطية الشكل من الجوخ الاسود طول الواحد منها عشرة قراريط ،لا حافة له وتشده على الرأس عصابة

فأحضر خورشد باشا ثلاثة آلاف منهم . ولما بلغه نبأ وصولهم الى التخوم المصرية ، خرج بنفسه الى مقابلتهم ودخل بهم القاهرة من باب النصر . فكانت باكورة اعمالهم ان انقضوا على السابلة وارباب الدكاكين ، فخطفوا النساء والمردان ونهبوا التجار ؛ كأنهم انما حضروا لهذا الغرض فقط . بعد ذلك طلبوا علوفاتهم ومرتباتهم بالحاح ونعير لم يرَ الباشا معهما بداً من اجابتهم الى طلبهم . ففرض على تجار ، كانوا منتظرين حرساً للذهاب الى ينبع ، خمسمائة كيس ، لاعطائهم ذلك الحرس ، وعلى اليهود مائة وعشرين كيساً ، وألزم تجارة السويس بما وازى هذين المبلغين معاً

غير ان خبر وصول الدلاة ما بلغ محمد علي وهو في المنيا الا وأدرك الباعث الذي حمل خورشد باشا على احضارهم . فاتفق في الحال مع حسن باشا زميله ، ونهض كلاهما ، وسارا بجنودهما الى القاهرة . فلما شاع خبر قدومهما ، اضطرب له خورشد اضطراباً عظيما . فبعث واستدعى اليه المشايخ ونقيب الاشراف والوجاقلية

وأرباب الديوان ، وقال لهم : « ان محمد علي وحسن باشا راجعان من قبلي من غير اذن ، وطالبان شراً ، فاما ان يعودا من حيث أتيا ، ويقاتلا المماليك ، واما ان يذهبا الى بلادهما ، أوأعطيهما ولايات ومناصب في غير أرض مصر . فان لديّ أمراً من السلطان بذلك . فاطلب اليكم اذاً ان تكونوا معي وتعضدوني ! » فقرّ الاتفاق على ان يبيت عنده في القلعة ، كل ليلة ، اثنان من المتعممين واثنان من الوجاقلية . وصدر الامر الى الدلاة بالخروج بأسلحتهم ومدافعهم الى ناحيتي طرا والجيزة للوقوف في وجه القادمين

ففعلوا . ولكنهم لم يجسروا على التعرض لمحمد علي ومن معه . ولما أرسل محمد علي اليهم يقول لهم : « اننا انما جئنا في طلب المرتبات ولسنا بالمخالفين ولا بالمعاندين » ؛ وعزز قوله بالهدايا والتحف ـ قال الدلاة بعضهم لبعض : « اذا كان الامر كذلك ، فالقوم محقون فيما يعملون ! » وأجابوا من أرسله خورشد لتأنيبهم على جبنهم وتساهلهم : « اذا كنتم تمنعون وتحاربون من يطلب حقه ، فكذلك تفعلون معنا ، اذا خدمنا كم زمناً ، ثم طلبنا علائفنا ! » واستمروا لا يبدون حراكا . فدخل محمد علي وزميله بجنودهما القاهرة ونزلا في بيتيهما

فبلغت الفوضى ، حينذاك ، اقصاها : فاخلاط العسكر في مصر ، ولا سيما الدالاتية يأكلون الزرع والقوت ، ويخطفون ما يجدونه مع الفلاحين والمارين ، بل يخطفون النساء والاولاد . والمماليك في

الاقاليم ، وعنـد أبواب العاصمة ذاتها يأخذون من البلاد الاموال والكلف عنوة واغتصاباً . والعرب والبـدو يغيرون على القرى . وينهبونها ويحرقون الاجران ويسبون النساء ؛ ويضربون ويقتلون من يتعرض لهم بدفاع . واسراب الاولاد الصغار يصرخون في اسواق القاهرة والمدن الاخرى ، ويأمرون الناس بغلق الحوانيت ، ويسبون المشايخ ويشتمونهم ويرجمونهم بالحجارة اذا ما صادفوهم في الشوارع ، لاعتقاد الملأ ان المشايخ لو تجاسروا وأرادوا ، لتمكنوا من رفع تلك البلايا . والباشا لا يرى للامور دواء الا العمل على اخراج محمدعلي وفرض الاموال على الناس ؛ كأنه لا يكفيهم ما هم فيه من بلاء وشقاء

فلاخراج محمد علي حمل الاستانة على تعيينه والياً على جدة . وكان محمد علي ، منذ ان عاد الى منزله ، متظاهراً بالاعتدال التام . يتحبب الى العلماء بما يحادثهم من محادثات عذبة ، وما يشترك معهم فيه من تأدية فرائض الدين . ويزيد في اجتذاب قلوب الناس اليه ، بمنع كل تعد من جنوده الخاصة عليهم . ويقوي تعلق جنوده به ببذله لهم مرتباتهم في أوقاتها ، وبمضاعفتها احياناً

فلما أتاه فرمان التوليـة على جدة . تظاهر بقبول المنصب ، ولـكنه رفض ما دعاه اليه خورشـد من الصعود الى القلعة ليتقلده فيها — ومن يعلم كيف فتك خورشد هذا غدراً ، بعد ذلك بنحو عشرين سنة بعلي باشا تبلن والي ينينا ، لا يسعه الا ان يقر محمد علي

على قلة ثقته به ـ وحتم عليه النزول الى المدينة لقراءة الفرمان المنبىء بذلك في بيت شيخ وقور يقال له سعيد اغا . فنزل الوالي على مضض ، وخلع على محمد علي ، والبسه فروة المنصب الجديد وقاووقه . فشكر محمد علي وخرج يريد الركوب . ولكن عسكره ـ بايعاز سري سابق منه ـ اوقفوه ، وطلبوا منه العلوفة . فقال لهم : « ها هو الباشا عندكم فطالبوه ! » وركب ، وذهب الى داره بالازبكية ، وهو ينثر الذهب في الطريق . فاحاط العسكر بخورشد باشا ، ومنعوه من الخروج او يدفع المرتبات . واشيع في المدينة انهم حبسوه . ففرح الناس وباتوا مسرورين

ولكنه تمكن في الليل من الصعود الى القلعة . وفي الصباح التالي ، لخوفه من ان ينضم الدلاة الى الارناؤوط في المطالبة بالعلوفة ـ فلا يبقى له نصير ـ بعث اليهم يبيح لهم نهب مديرية القليوبية ليحصلوا منها مطلوباتهم . فعاث الدلاة في البلاد فساداً ، وارتكبوا من المنكرات ما لا يصوره عقل

فطفحت بالناس الكأس . فركب المشايخ الى بيت القاضي واجتمع فيه عدد عظيم جداً من المتعممين والعامة والاولاد ، حتى غصت بهم الدار ، وامتلأ بهم صحنها ، وصرخ الجميع : « شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ! » وطلبوا من القاضي ان يرسل باحضار المتكلمين في الدولة الى مجلس الشرع . فلما حضروا واستقر بهم المكان ، قر الرأي على كتابة عريضة بالشكاوي

والمطالب الى الوالي . فكتبت ورفعت اليه . فاجاب يستدعي القاضي ونقيب الاشراف والعلماء اليه في القلعة ليشاورهم في الامر . فغلب على ظنهم انها خديعة منه . وحضر بعد ذلك من اخبرهم ـ ولا ندري مقدار ما كان في اخباره من الصدق ـ ان الوالي اعد اشخاصاً لاغتيالهم في الطريق . فتملكهم الغيظ والحنق . وفي الغد ، وكان يوم ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ ركب الجميع ، ساعة العصر ، وذهبوا الى محمد علي ، وقالوا له : « انا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ، ولا بد من عزله من الولاية ! » فقال : « ومن تريدون ان تولوا مكانه ؟ » قالوا لا نرضى الا بك والياً ، لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ! »

فامتنع اولا ، لكيلا يقال انه هو المحرض . ولكنه ـ امام الحاح القوم ـ رضي . فاحضروا له كركا وعليه قفطان . وقام اليه السيد عمر مكرم ـ نقيب الاشراف ـ والشيخ الشرقاوي ، فالبساه اياه . ونادوا بذلك في المدينة . فاستبشرت وهللت . ثم ارسلوا الخبر الى خورشد باشا وطلبوا اليه اعتزال الامر فاجاب : « انا مولى من طرف السلطان ، فلا اعزل بامر الفلاحين ! ولا انزل من القلعة الا بامر من السلطنة ! » ، وشرع يستعد للمقاومة ، وانضم اليه فيها زعيمان البانيان : عمر بك وصالح اغا أق قوش ، حسداً منهما وغيرة من محمد علي . وأخذ ثلاثتهم يخابرون حسن باشا ، زميل محمد علي ليحملوه على التحيز لهم . وكتب خورشد الى سلحداره

في المنيا يستنجده ، والى المماليك يدعوهم الى محالفته ، والى الدلاة ، يأمرهم بالاسراع الى الالتفاف حوله

فاضطر محمد علي الى محاصرة القلعة من كل جهة . بينما السيد عمر مكرم والمشايخ ، ومعهم الكثير من العامة والوجاقلية يحافظون على المدينة باسلحة وعصي ونبابيت ، بعد ان حرروا إعلاماً وقعه المفتي بشرعية الحركة . فرأى خورشد ان يرسل عمر بك الى السيد عمر مكرم ليحمله ، هو والعلماء ، على العدول عما هم فيه . فدارت بين العمرين مناقشة طويلة ، من جملتها ان عمر بك قال : « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله : اطيعوا الله ، واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ؟ » فقال النقيب : « اولي الامر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل . وصاحبك رجل ظالم . وجرت العادة من قديم الزمان ان اهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور ! » قال عمر بك : « كيف تحصرونا وتمنعون عنا الماء والاكل ، وتقاتلونا . أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ » قال النقيب : « نعم فقد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم ، لانكم عصاة ! » قال عمر بك : « ان القاضي هذا كافر ! » ـ وكان تركياً مثلهم ، ومعيناً من قبل السلطان ـ فقال النقيب : « اذا كان قاضيكم كافراً فكيف بكم ؟ » فأفحم عمر بك وعاد من حيث اتى

وزاد التشديد في الحصار . ثم أتى ، في الايام التالية ، كبار

الدلاة الى محمد علي واعترفوا بولايته ، واعلنوا انفضاضهم بتاتاً عن خورشد ـ وهو الذي كان احضرهم ليستعين بهم على محمد علي والباشيه . فما كان احراه بترديد قول الشاعر :

واعوان تخذتهم دروعاً فكانوها ، ولكن للاعادي
وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ، ولكن في فؤادي

فخلع عليهم محمد علي خلعاً وكساوي . وارتحلوا بقصد الذهاب الى محاربة الالفي واتباعه ، والعرب الذين معه . ولكنهم لم يذهبوا الى ما وجهوا اليه ، وساروا الى البلاد والقرى ينهبون ويقتلون ويفسقون

وفي ٩ يوليو وصل الى مصر كابجي من دار السعادة ـ وكان محمد علي منذ ان قبل الولاية ، قد بعث بالهدايا النفيسة الى رجالها ، ليحملهم على اقرار ما فعله علماء مصر ، فبعد ان تردد الديوان كثيراً وماطل كثيراً ، انقاد في نهاية الامر الى نصائح السفير الفرنساوي هناك (وكان قد أوصاه بمحمد علي خيراً القنصل الفرنساوي بمصر واسمه ماتييه دي لسبس ، وهو ابو فردينان دي لسبس صاحب قناة السويس) واتخذ عبرة من المصاعب التي قامت حتى تلك الساعة دون ان تستتب في مصر سلطة الباشاوات المرسلين اليها من الاستانة ، أو المعينين منها مباشرة ، فصدق على اختيار الشعب . وأرسل مرسوماً مع ذلك الكابجي بتأييد محمد علي على ولاية مصر ، وعزل

خورشـد باشا ، وتسفيره الى الاسكندرية مكرماً حتى يتعين على ولاية أخرى

فأرسلت صورة من المرسوم الى خورشد باشا.فأجاب بانه والي مصر بمقتضى خط شريف وانه لا يعزل الا بخط شريف . ولـكنه، مع ذلك أبطل اطلاق النار من القلعة ، وطلب مقابلة منـدوب الباب العالي . فرفض

فعاد خورشد الى مفاوضة المماليك ، وكان سلحداره قد رجع من المنيا . فاتفق الجميع معاً على عمل مشترك يقلبون به مجن الدهر في وجوه أعدائهم

ولـكن محمد علي كان يقظاً . فبرز للماليك وردهم على أعقابهم . ثم تحول الى سلحدار خورشد ، فأدبه . وضيق أهل البلد الخناق على الباشا المعزول . وكان أشدهم عليه وطأة رجل من جهة السيدة عائشة . يقال له حجاج الخضري ، اشتهر بالبسالة والاقدام ، منـذ أيام الفرنساويين

وبينما الحرب دائرة سجالا ، ورد نبأ بقدوم عمارة القبطان باشا الى أبي قير في يوم ١٧ يوليه تحمل الفين وخمسمائة مقاتل . وتلا النبأ قدوم سلحدار القبطان باشا نفسه ، ومعه مكاتبة الى خورشد باشا ، مضمونها الامر له بالنزول من القلعة ، ساعة وصول الخطاب اليه ، من غير تأخير ، ومكاتبة الى محمد على بتثبيته في مركزه

فلما اجتمع السلحدار بخورشد باشا في القلعة ، أذعن خورشد

للامر ؛ ووعد بالرحيل ، على ان تدفع مرتبات مَن خدمه من الزعماء والجند . ولكنه عاد فأخلف وعده . وأخرج من بالقلعة من النساء والاولاد ، واحتفظ بالرجال . وبالاتفاق مع سلحداره والمماليك ، أثار نار معركة جديدة. ولكن محمد علي اطفأها بسرعة، وأخذ احتياطاته لمنع تجديد مثلها

فرأى سلحدار القبطان باشا والكابجي ان عدم تتميم المهمة التي حضرا من أجلها ينقصهما جداً فعادا الى الاجتماع بخورشد وما زالا به حتى اقنعاه بوجوب التسليم والاذعان. فقبل . فصعد في ٣ اغسطس سنة ١٨٠٣ حسن اغا سار ششمه محمد علي بجملة من العساكر الى القلعة ؛ وتسلمها من خورشد ، ونزل الباشا المخلوع من باب الجبل في الساعة الرابعة على الحساب العربي من صباح اليوم التالي ، الى جهة باب النصر ، ومر من خارجه الى جهة الخروبي ، وذهب الى بولاق يصحبه كتخدا محمد علي وعمر بك وصالح اغا اقوش . وفي ٩ اغسطس ركب سفناً من بولاق ، وارتحل الى رشيد

فكان آخر وال عثماني على مصر تأتيه الاوامر من الاستانة رأساً . وخلا الجو منه لمحمد علي . فجلس بدله على سدة الولاية

* * *

وهكذا صدق قول الشيخ الوقور له . واوصلته الطريق الطويلة الوعرة التي سلكها ، عملا بنصيحته ، الى ذروة المعالي

الفصل الثالث

العمل على الثبوت فوق القمة

ولكنه ما استوى على سدة الولاية الا ووجدها خشباً يبساً كله شظايا ؛ ووجد ان شوك المصاعب يكتنفها من كل صوب ، وجيش الهموم يزدحم حوله من كل باب . فايقن ان الصعوبات التي اجتازها للوصول الى السدة لم تكن شيئاً بجانب التي يلزمه التغلب عليها للثبوت فوق القمة ؛ وان اقل خطوة مخطئة يخطوها تدهوره حتماً الى الاعماق

فاقام لحظة يتبصر في أمره ، ويتفرس ملياً بالصعاب المحيطة به . فاذا هي :

اولا : عدم خلوص نية الباب العالي من جهته ومبدأ الديوان القاضي بعدم ابقاء وال على كرسي ولاية مصر اكثر من سنة

ثانياً : قيام الدسائس البريطانية حوله ، وسعي انجلترا سعياً حثيثاً ، سراً وجهاراً ، لاسقاطه ، وتسليم القطر المصري الى المماليك

ثالثاً : نزوع جنده الى الثورات بين حين وحين تحت تأثير شتى المؤثرات

رابعاً : قيام المماليك عليه ، لرغبتهم في الانتقام منه ، وفي العودة الى منصة الاحكام

خامساً واخيراً : عدم التمكن من التغلب على هذه الصعاب الاربع الا بالمال ، وعدم وجود المال في خزائنه ، ووجوب الحصول عليه بدون تنفير قلوب الناس منه

* * *

أما عدم خلوص نية الباب العالي من جهة ، فانه ظهر جلياً في سلوك القبطان باشا التالي لما بدا منه من تثبيت محمد علي على سدة خورشد . فان القبطان باشا هـذا لم يبرح الاسكندرية بعد انقضاء مهمته وأقام فيها كأنه ـ عملا بأوامر سرية ـ متربص للطوارىء . فكاتبه محمد بك الالفي ، وعرض عليه ان يضم مماليكه الى قوى سلحدار خورشد باشا ـ وكان لا يزال في الجيزة ويأبى الاعتراف بولاية محمد علي ـ والى الالفين والخمسمائة مقاتل الذين حضر بهم القبطان باشا نفسه ، وان يزحف الجميع الى القاهرة ، فيستخلصوها من يد محمد علي ، ويطردوا الالبانيين من القطر . وعضد الانجليز مقترحات صديقهم الالفي بك، ووعدوا بالمساعدة والمال ، واومضوا بريق وعيد يؤخذ منه ان بريطانيا العظمى ـ اذا أهمل القبطان باشا اجابة طلب الالفي ـ قد تنزل جيشاً الى الساحل يعمل بالاتحاد مع المماليك على التخلص من محمد علي

ولـكن الفرنساويين ـ لعدائهم للانجليز ـ افهموا القبطان باشا انه اذا انصاع الى محرضات الالفي، وعمل باقتراحاته، أساء الى دولته اساءة كبرى ، وأساء الى مصر اساءة أكبر : لان الحوادث الماضية



الدكتور كلوت بك



سليمان باشا الفرنساوي

دلت دلالة صريحة على ان محمد علي خير من يصح الاعتماد عليه في تنظيم الامور في القطر ، لما بدا من عزمه وحزمه ، ومتانة أخلاقه . وبلغ من التحيز الفرنساوي لبطلنا ان السفير الفرنساوي في الاستانة بتأثير كتابات القنصلين الفرنساويين في القطر المصري ـ ماتييه دي لسبس ودروفتي ـ ما فتىء يلح على رجال الديوان بوجوب عدم التعرض لمحمد علي بسوء ، لا سيما وانه محبوب من العلماء والعامة ، وانه آخذ في تجهيز مهمات حملة ضد الوهابيين ، اعداء السلطنة والدين

ولم يتوان محمد علي ، من جهته ؛ ولعلمه بما للهدايا من التأثير الكبير في نفوس رجال تركيا ، غمر القبطان باشا ورجال الديوان بها

اما القبطان باشا ، فانه أمام هذه المؤثرات المختلفة ، أقام متردداً مدة . فاغتنمها محمد علي للقضاء على سلحدار خورشد باشا ، واضطراره الى التسليم ، والتخلي عن جنده ومهماته ، واللحاق بمفرده بخورشد باشا مولاه في الاسكندرية . واما الاستانة ، فانها أصاخت سمعاً الى أقوال السفير الفرنساوي ، وطابت قلباً لهدايا محمد علي ، مرة أخرى . فأرسلت الى القبطان باشا تأمره بالعودة الى مياه البسفور بعمارته . فاقلع الرجل في ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٠٥ وأخذ معه خورشد باشا . وقد قال بعض المؤرخين انهم وجدوا في مذكرات هذا القبطان ورقة كتب عليها ما يأتي ؛ مشيراً الى محمد علي : « اني أترك خلفي رجلا سوف يصبح يوماً ما اكبر متمردٍ على الدولة

العلية ؛ وان سلاطيننا لم يوفقوا البتة الى سياسي داهية كهذا ، ولا الى رجل قوي العزم والحزم مثله ! »

واما مبدأ الباب العالي في عدم ابقاء وال على مصر اكثر من سنة ، فانه تجلى في ظهور عمارة عثمانية في ميناء الاسكندرية في اول يوليه التالي ، تحت قيادة امير بحر غير السابق ، وعليها ثلاثة الاف جندي من جنود النظام الجديد وموسى باشا ، والي سلانيك المعين خليفة لمحمد علي . وما استقر المقام في الثغر لامير تلك العمارة ، الا وارسل رسولا بفرمان من الباب العالي الى محمد علي يأمره فيه بالتخلي عن ولايته الى موسى باشا ، والذهاب لتولي ولاية سلانيك مكانه

فاظهر محمد علي رغبته في الامتثال ، وارسل مع الكابجي رسولا الى القبطان باشا يقول له ان جل رغبة مولاه الابتعاد عن قطر الفتن فيه معششة ومفرخة . ولكن الجنود ـ ولهم متأخرات يبلغ مقدارها عشرين الف كيس ـ يمانعون في ارتحاله . ولكي يظهر ان قوله هذا حقيقة لا ايهام ، جعل عسكراً يرافقونه اينما يتنقل ، ويطالبونه بعلوفاتهم جهاراً ؛ ثم اراد ان يتأكد من نفسية قواده ، ومقدار عطفها عليه . فجمعهم وقال لهم انه مستعد للخضوع والطاعة والسفر . فهتف جميعهم : « ولكنا لا نسمح لك بذلك البتة ! » فقال محمد علي بحماسة : « أوَ كيف ؟ اتريدون منعي من تنفيذ الاوامر التي صدرت اليّ ، وليس في استطاعتكم المدافعة اذا ما

هوجمنا ؟ فجنودكم لا تفتأ عابثة بالنظام ، فاتكة بالاهالي ، ملحة عليّ في كل حين باعطائها اجورها . وانتم رؤساؤهم وقوادهم ، أتدرون كيف تعملون على ابقائهم في حدود الواجب ؟ وألا تفضلون لذات الراحة ونعيمها على مشقات الحروب واخطارها ؟ انتم تتمتعون بهناء بالاموال التي جمعتموها ، وانا وحدي هدف لضربات الاعداء ، وانوء وحدي بعبء الامور الثقيل . فاذا شئتم ان أبقى معكم ، رفيقاً اميناً وزميلا صادقاً ، مثلما كنت في الماضي ، فاقسموا لي على القرآن الشريف بانكم لن تتركوني ولن تتخلوا عني ، وانكم تموتون اذا اقتضت الحال في سبيل قضية هي قضيتنا جميعاً ! »

فألهبت هذه الخطبة الوجيزة البليغة افئدة جميع الحاضرين — وكانوا اكثر من سبعين زعيما — فاقسموا في الحال القسم المطلوب منهم . ولكي يجعلوه مقدساً قداسة لا يتمكن احد معها من العبث به — مهما اشتدت صروف الليالي — احاطوه بسياج عادة البانية قديمة : فامسك اثنان منهم — وكانا اكبر الموجودين سناً — حسام محمد علي من طرفيه ومداه . فمر الجميع فوقه واحداً بعد الآخر . ولم يكن يمكن بعد ذلك — الا للموت — ان يحل عروة تعهد عقدت بمثل هذا الشكل

ثم اقدم الحضور على اكتتاب فيما بينهم . فجمعوا ، من وقتهم ، الفي كيس سلموها الى محمد علي . وسرعان ما أرسل هذا رسولا من

قبله الى الاستانة بالتحاويل السمينة ، وسرعان ما جد ، بعد ذلك ، في تجهيزاته الحربية !

ثم جمع العلماء وعلى رأسهم السيد عمر النقيب والشيخ عبد الله الشرقاوي ، وفاوضهم في الامر . فاجمع رأيهم على ارسال كتابة الى الباب العالي يشرحون له الحال ، ويعرّضون بالامراء المماليك بجارح الكلام ، ويحبذون اعمال محمد علي ، ولكن بكياسة لا تجعل مجالا للاعتقاد بان الكتابة موحى بها منه . ثم اذ اتاهم كتاب من القبطان باشا يعرفهم فيه بما قر عليه رأي الديوان ، سألوا محمد علي عما يجب ان تكون اجابتهم عليه . فقال لهم : « سأرسل اليكم غداً بصورة الرد ! » وفي اليوم التالي ارسلها اليهم . فنسخوها ، واذا بها تقول للقبطان باشا ان الجند قد لا يطيعون اميرهم ، وقد يثورون اذا علموا باضطراره الى الرحيل ، فيعبثون بالامن والنساء . وسموّه رحيم لا يرضى بذلك

فاتضح من هـذا جميعه ان محمد علي مصمم على عدم تنفيذ اوامر الديوان ، وان لا شيء يحوله عن تصميمه . وفاتح ، هو نفسه ، بعض اخصائه في الامر ، فقال لهم : « أيظنون ان مصر دار حمام مفتوحة يدخلها من يشاء ؟ اني قد اكتسبتها بحد حسامي ! ولن اتخلى عنها الا مكرهاً ، بقوة السلاح . انا اعرف الاتراك . هم قوم يبيعون انفسهم اذا وجدوا من يشتريها . فانا سأشتريها . قد فزت بالولاية ، العام الماضي ، وانا على رأس خمسمائة جندي فقط ، مقلقلي

العزم ، أ فأتخلى عنها اليوم ، ولديّ الف وخمسمائة بطل كلهم ولاء لي ؟»

وبينما موسى باشا على ظهر سفينة يلح على القبطان باشا بتنفيذ اوامر الديوان ؛ وبينما القنصل البريطاني بالاسكندرية يهتم اهتماماً فائقاً لحمل القبطان على العمل ، ويرسم له خططاً للهجوم ، ويجند أرواماً وايطاليين في الاسكندرية ويرسلهم مدداً الى الالفي ، الذي كان ، في ذلك الوقت ، يحاصر دمنهور ، ويجتهد في تفهيم محمد علي بان انجلترا تضمن له البقاء والياً على سلانيك اذا هو رضي بالذهاب اليها ؛ وبينما الالفي ــ وكان قد وعد الاستانة بالف وخمسمائة كيس ، بضمانة الخزينة البريطانية ، اذا هي أخرجت محمد علي من مصر ــ يجد لحمل باقي الامراء على الاشتراك معه في دفعها ولا يفلح ، أقبل قنصل فرنسا يضع الالغام تحت مساعي زميله ، القنصل البريطاني ، ويحول الى محمد علي خدمة خمسة وعشرين مملوكا فرنساوياً كانوا تحت لواء الالفي ؛ وما فتىء يؤكد للسفير الفرنساوي في الاستانة ان محمد علي صديق صدوق لفرنسا ، وان بقاءه والياً على مصر يتفق دون وجود سواه ، اياً كان ، مع المصالح الفرنساوية في القطر ؛ واقبل السفير الفرنساوي في الاستانة يعضد مساعي الرسول الذي ارسله محمد علي اليها بالحوالات السمينة ، ويعضدها بكل النفوذ الذي كان يستمده من مولاه نابوليون الاول ، صاحب الكلمة العليا في اوروبا ، بعد ان قهر النمساويين والروس في وقعة اوسترلتز سنة ١٨٠٥

فبعث الديوان الى القبطان باشا يكل اليه التصرف المطلق في الأمر . وكان القبطان باشا قد أرسل مندوباً الى الالفي ليأتيه بالالف والخمسمائة كيس السابق ذكرها . فعاد المندوب اليه وقال : « ان الامير محمد بك الالفي ، لعدم تمكنه من الاتفاق مع زملائه على ان يقوموا ، جميعهم ، بدفع ذلك المبلغ ، يعرض على سموكم ان تقبلوا منه وحده خمسمائة كيس ! » فاستشاط القبطان غيظاً وقال : « ايظن هذا الرجل ان لحية الصدر الاعظم ولحيتي هزأة ! » واقبل في الحال على مخابرة محمد علي في اتفاق يبرمانه

فاستقر الرأي على ان يدفع محمد علي اربعة آلاف كيس ، وان الديوان والقبطان يبقيانه مقابل ذلك في منصبه ، على ان يعود العلماء والاعيان الى التماس ذلك بعريضة لكيلا يقال ان ذمة الديوان اشتريت . فكتب العلماء والاعيان العريضة وسافر ابراهيم بك ابن الوالي الاكبر بها وبهدايا فاخرة الى امير البحر ، وبقي رهينة حتى يفي ابوه بتعهده المالي . وارسل القبطان باشا كتخداه الى القاهرة بالمرسوم المثبت محمد علي في ولايته ، على ان يمتنع عن محاربة المماليك ويتصالح معهم . ففرحت القاهرة ثلاثة ايام متواليات

واقلع القبطان باشا في اليوم الثالث من اكتوبر بعمارته ، وعاد بموسى باشا والي سلانيك من حيث اتى به . وفي ٢ نوفمبر — وكان محمد علي قد دفع الاربعة آلاف كيس — قدم كابدجي من الاستانة بفرمانين : احدهما يقر محمد علي على سدته ؛ والثاني ، يأمره بتسفير

الحج والمحمل وارسال ستة آلاف اردب بر الى جدة

واستمر الامر كذلك من دفع اموال سنوياً ، وتثبيت سنوي ، حتى استتبت قدما محمد علي ، وأصبح مركزه في مأمن من تقلبات اهواء الديوان

* * *

على انه لم يثبت في مأمن من دسائسه ، ومكائده الا بعد ان قضى كتخداه محمد بك لازوغلو على لطيف باشا ، آخر من استعمله الديوان لاستخلاص مصر من يدي محمد علي

وتفصيل ذلك انه كان بين مماليك محمد علي المقربين اليه شاب يقال له لطيف اغا كان محمد علي يحبه جداً ؛ وبالغ في تقريبه اليه حتى جعله أمين خزنته الخاصة

ولما أتت الانباء باستيلاء الجيوش العثمانية على المدينة المنورة واستخلاصها من أيدي الوهابيين أرسله بالبشائر الى دار السعادة ، لعلمه بان ذلك سينيله حظوة عند الديوان والسلطان . وفي الواقع فان الاستانة أنعمت على لطيف اغا برتبة الميرميران . ولما رأته شاباً معجباً بنفسه ، ومنفوخاً ، وقع في خلدها ان تستعمله آلة للتخلص من محمد علي . ففاتحته في الامر ، فقال لطيف انه من السهل جداً القيام بتنفيذ رغائب الباب العالي . لا سيا وان محمد علي عازم على التوجه بنفسه الى البلاد الحجازية ، عن قريب ، ليباشر بنفسه ، ادارة رحى الحرب ضد الوهابيين ، فتقدم غيبته عن القطر المصري خير

فرصة لقلعه عن سدته ، وانه هو لطيف باشا ، يتعهد بالقيام بهذه المأمورية اذا حسن لدى الباب العالي تقليده امارة مصر ! فما كان من الديوان الا انه أجابه الى طلبه في الحال ، وسلمه فرمان تعيينه والياً على مصر. وأصحبه اليها بخط شريف ينبيء بذلك فوضعهما لطيف في جيبه وعاد الى القاهرة ، وأخذ يترقب الفرص . ومع انه لم يطلع على السر الخطير المختبيء في جيوبه الا أقرب الناس الى فؤاده ، الا انه ، لغرور والطيش المتغلب على طبعه ، أظهر من تغير في أخلاقه ، وشموخ في معاملاته ، وخيلاء في حركاته وسكناته ، ما حول قلب محمد علي عنه ، وما جعل هذا الامير عند مغادرته عاصمته للذهاب الى البلاد العربية لقتال الوهابيين ــ يوصي كتخداه بمراقبة تصرفات ذلك الشاب المغرور شديد المراقبة فقام الكتخدا بالوصية خير قيام، لا سيما وانه كان يكره من الاصل لطيفاً ، وزاد حقده عليه ما شرع يراه من غطرسة فيــه واقدام ــ بعد سفر محمد علي ــ على انفاق النقود بسخاء ليزيد عدد مريديه

فليأخذ عليه خط الرجعة ، باغته ذات يوم بدعوة الى اجتماع يعتد في القلعة للنظر في بعض الشئون وخيره بين ان يحضر اليه ، من وقته أو يغادر الديار . فأسقط لطيف في يده وارتبك أمره . وما أفاق الى ما يجب عليه عمله الا وبيته يحيط به العسكر . فأطلق عليهم الرصاص الذي كان عنده . ولما فرغ منه خبأ كنزه ونساءه ومملوكا

له في مخبإٍ وانسلّ من طريق سري الى بيت خازنداره وكان يجاور بيته . واختفى عنده

اما العسكر ، فبعد ان كسروا أبواب المنزل المحاصر ودخلوه قلبوه رأساً على عقب . فعثروا بالنساء والمملوك والكنز . ولكنهم لم يجدوا لطيفاً . فأقاموا متربصين . فلما كان مساء الغد ظن لطيف ان بيت صديقه قد تتجه اليه الظنون . ووقع في خلده ان يصعد الى سطحه ويقفز منه الى السطح المجاور ومن هذا الى السطح الذي بعده وهكذا حتى يبعد كثيراً عن منزله ويتمكن من الابتعاد بسلام عن العاصمة ريثما تتهيأ فرص أوثق . ففعل . ولكن بينما هو يحاول القفز من سطح صديقه ، بصر به جندي كان على سطح مجاور يستنشق نسيم المساء ؛ وأوقع الصوت في الحيرة . فرماه لطيف برصاصة من بندقية كانت معه . فقتله . ولكن دوي الطلقة فعل ما لم يفعله صراخ المقتول فانه أرشد الى القاتل مساعي الباحثين عنه . ولم تمض سويعات قليلة الا وبات لطيف مكبلا بالحديد وسيق الى الكتخدا لمحاكمته . فجمع الكتخدا الديوان ، شكلا ، واستصدر منه حكماً بالاعدام

فسيق لطيف الى عرصة تحت سلالم السراي بالقلعة ، وقطع هناك رأسه يوم ٨ نوفمبر سنة ١٨١٤ وهو يبكي ، وينتحب ويطلب العفو بتوسل ، والاذان حوله والقلوب لا تسمع ولا تشفق

* * *

اما قيام الدسائس البريطانية حوله وسعي انجلترا سعياً حثيثاً الى اسقاطه فقد تجلى فيما سبق لنا ذكره عرضاً فيما مضى من الكلام. ولما لم يفلح ذلك جميعه ، أرسلت بريطانيا العظمى حملة على مصر تحت قيادة الجنرال فريزر ، وأنزلتها في العجمي يوم ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ . فاستولت هذه الحملة على الاسكندرية ، بدون قتال بعد يومين فقط من وصولها تحت اسوارها ، بتأثير القنصل البريطاني السيء على محافظها امين اغا ، وبالرغم من كل ما بذله لذلك المحافظ من نصائح وتشجيعات القنصل الفرنساوي ، الذي لم ير بداً بعد وقوع المدينة ، من الفرار الى رشيد ، هرباً من سقوطه في أيدي الانجليز

فأسرع الجنرال فريزر وبعث فرقة تحت قيادة الجنرال ويكب للاستيلاء على رشيد . فدخلتها في ٢٩ مارس بلا قتال . فظنت ، لذلك ، انها انما أرسلت الى نزهة عسكرية وان المدينة خالية من حماة . فاطمأنت . وانتشر جنودها هنا وهناك وانطرحوا في ظل البيوت والاشجار للراحة . وتخلى معظمهم عن أسلحتهم ، ليناموا

فاغتنمها علي بك محافظ المدينة فرصة جميلة ، وسار اليهم بالحامية المؤلفة من خمسمائة جندي وهاجمهم على غرة . وأخذ الاهاون يصلونهم ناراً حامية من النوافذ والسطوح . فما هي الا لحظة وقتل الجنرال ويكب ودبّ الرعب الى قلوب جنوده . ولولا ان الاتراك أضاعوا الوقت في قطع رؤوس الواقعين ، لما نجا من الانجليز

أحد . ولكن حماة رشيد اسروا ـ مع ذلك ـ مائة وعشرين منهم . فوضعوهم في مراكب ، ووضعوا فيها بجانبهم تسعين رأساً مقطوعة ، وسيروا الجميع الى العاصمة . فشكت الرؤوس هناك على حراب ، وغرست الحراب على جانبي بركة الازبكية ، لتتفرج عليها العامة

ولما بلغ نبأ هذا الفوز محمد علي ، استدعى العلماء . فأخبروه بان الشعب مستعد للزحف الى مقاتلة الكفار . فقال لهم محمد علي « ان جنودي تتكفل بالقضاء عليهم ، ولست اطلب من الشعب الا دفع الضرائب ! » ورجا السيد عمر مكرم النقيب بتحصيل تسعمائة كيس من اهل العاصمة . ثم شرع في تحصينها بسرعة واقامة الاستحكامات والمتاريس حولها . ونصب بطاريات المدافع في الجزيرة امام امبابه وفي اماكن أخرى . فاشترك العلماء مع الشعب في العمل بحماسة متناهية

ووجه محمد علي فرقة من جنده عددها اربعة الاف مقاتل كانت عائدة من الصعيد حيث كانت تقاتل المماليك ، الى الشمال تحت قيادة كتخداه . فلما بلغت منوفاً انقسمت قسمين . قسم تحت قيادة ضابط يقال له حسن باشا ، سار على شاطىء النيل الايسر ، وقسم تحت قيادة الكتخدا ، سار على شاطىء النيل الايمن

وكان الجنرال فريزر في الاثناء ، لرغبته في الثأر لشرف الجيش البريطاني ، قد سير حملة أخرى الى رشيد مؤلفة من اربعة الاف رجل تحت قيادة الجنرال ستيورت . فاستولت على حماد ،

واقامت على آكام ابي مندور ، بطاريتين ، أخذتا تطلقان قنابلهما على المدينة . واذا بالفرقة التي يقودها حسن باشا ظهرت امام الجيش البريطاني ، وانفصلت منها قوة مؤلفة من مشاة وفرسان وهاجمت حماد . فردت على اعقابها . ولكن بلكا من البلكات الخمسة الانجليزية التي صدتها تاه وهو يتعقب اثر المرتدين ، وضل عن رفاقه . فلما رآه فرسان الترك والالبان بعيداً عن معسكره ، كروا عليه واحاطوا به ، وقتلوا عشرين من رجاله ، واسروا خمسة عشر . ثم قطعوا رؤوس المقتولين والجرحى ، وذهبوا بها – علامة لنصرهم – الى بونيال ، حيث كان قد وصل الكتخدا وعسكره . فقام في الحال بفرقته ، وانضم الى فرقة حسن باشا ، وسار بجنده مجموعاً واجتاز به النيل ، واقامه على بعد فرسخ فوق معسكر الجيش الانجليزي .

فاول ما علم الميجر ووجلسند ، قائد القوات البريطانية في حماد بهذه الحركة ، بعث الى الجنرال ستيورت يطلب منه مدداً . فأمر هذا الكرنل مكاود بالذهاب مع خمسة بلكات لنجدته . ولما كان يوم ٢٢ ابريل ، تحرك الترك في الساعة السابعة صباحاً ، وتقدموا للهجوم . فرأى الكرنل مكاود ان مركزه غير امين . فانسحب الى بحيرة ادكو ، واضاف الى هذه الغلطة غلطة تقسيم قوته الى ثلاثة اقسام ، كل واحد منها بعيد جداً عن الآخر . فهاجم فرسان الترك بعنف يمنة هذه القوى ، وداسوا تحت حوافر جيادهم

مائتي رجل كانوا هناك تحت قيادة الميجر مور ، واسروا قائدهم هذا . ثم تعدوا الى القلب . فنظم الكرنل مكلود مائة اسكتلندي مربعاً ، وقاوم المهاجمين بسالة ، وابعدهم عنه . فلما رأت مشاة الاتراك ذلك ، اسرعت الى نجدة الفرسان . فرأى مكلود ان يعمل على الاقتراب من الميجر ووجلسند . ولكنه أصيب اذ ذاك بجرح مميت في رأسه . فقام مكانه يوزباشي يقال له ميكاي Mckaye وحاول اتمام الحركة المرغوب فيها . ولذلك غير نظام الجند من مربع الى كتيبة عمودية . فما رأى الفرسان ذلك الا وتدفقوا عليها كالسيل الجارف واعدموها ما عدا سبعة من رجالها واليوزباشي فانهم تمكنوا من الانضمام الى ووجلسند . حينئذ تجمهرت قوى الاتراك كلها ، وانقلبت على هذا الاخير . وكان ، مع بلوكاته الخمسة ومدفع واحد فقط ، مقيما على منخفض من الارض يحيط به اكام رمل . فلم يستطع المقاومة بفائدة ؛ واضطر عقب قتال عنيف ، وبعد ان فقد نصف رجاله ، الى تسليم سلاحه

فلما نظر الجنرال ستيورت ما آل اليه القتال ، لم ير ان في استطاعته البقاء في مركزه ، واعتبر الانسحاب الوسيلة الوحيدة للنجاة . فأمر به ، بعد ان أتلف ذخيرته وسمر مدافعه . وما زال يرتد ، والجيش التركي يتعقبه ؛ حتى بلغ خليج ابي قير ، حيث كانت في انتظاره مراكب عادت به الى الاسكندرية ـ هكذا فاز نجم محمد علي على نجم بريطانيا العظمى في ذلك اليوم ! وكان فوزاً مبيناً ،

اثبته لشعب القاهرة وصول خمسمائة اسير انجليزي ، ومرورهم منهوكي القوى ، لاهثين ظمأ امام رؤوس رفاقهم المشكوكة على الحراب في الازبكية !

بعد هذه الكسرة ، لم تقم للحملة الانجليزية قائمة ! فان الجنرال فريزر اكتفى بفصل الاسكندرية عن باقي القطر ، بقطعه حاجز بحيرة مريوط ؛ وأقام ينتظر ما تسفر عنه مفاوضات رسل أرسلهم الى المماليك ليذكرهم بوعود الالفي ، ويحضهم على الانضمام اليه ، لاسترجاع الاحكام الى أيديهم ، كما كانت قبل الحملة الفرنساوية . ولكن المماليك ، لما علموا ما أصاب الانجليز من فشل ، صموا آذانهم عن سماع ذلك الحض ؛ وأظهروا للرسول كبير اندهاشهم من ان جنداً كالاتراك ، والالبان ، لم يكونوا ، هم المماليك ، يعبأون بهم ، يفوزون مثل ذاك الفوز البين على جنود اوربية منظمة . فلم يبق للجنرال فريزر سوى الانسحاب . وبينما محمد علي يتأهب للزحف اليه بثلاثة آلاف من المشاة وألف فارس بمدفعية جيدة ، أتاه من لدنه مندوب ليفاوضه في شأن الجلاء عن الاسكندرية . وكان ذلك بأمر من الوزارة البريطانية ، اضطرت الى اصداره على أثر عقد معاهدة تلست بين نابوليون واسكندر امبراطور الروس ، وتفرغ نابوليون لقتال الانجليز في صقاليا

فقال محمد علي للمندوب انه قائم بنفسه للاقتراب من الجنرال فريزر ومفاوضته مباشرة . وسار في الحال الى دمنهور ، حيث قابل

الجنرال شربروك المرسل لملاقاته من الجنرال فريزر . فأبدى له طلبات الانجليز ، ولم تكن سوى التماس اعادة أسراهم اليهم . فأجابه محمد علي الى ذلك ، وأرسل يستدعي الاسرى من مصر . فلما وصلوا سلمهم الى قوادهم . فاستعد الانجليز للرحيل ، وفي يوم ١٤ ستمبر سنة ١٨٠٧ أقلعت عمارتهم بهم ، واستلم محمد اغا طبوزاوغلو الكتخدا مدينة الاسكندرية

١٤ ستمبر ! ألا ليت شعري ! من كان يدري أهل ذلك العصر ـ الفائزين والمهزومين على السواء ـ ان حملة انجليزية أخرى سوف تقدم الى البلاد بعد خمس وسبعين سنة ، وتحتل عاصمتها وقلعتها في يوم ١٤ ستمبر هـذا عينه ، فتقلبه من تذكار سنوي لنصر باهر الى تذكار سنوي لخطب جلل يوجب احتجاجاً دائماً !

ولما علم محمد علي بانسحاب الانجليز ، ودخول جنوده الاسكندرية ، أسرع اليها ، ودخلها على دوي المدافع وفي وسط تهاليل الشعب ومظاهر ابتهاجه !

هكذا انقضت تلك الحملة الانجليزية المشئومة الطالع ! وهكذا زال عن محمد علي اكبر خطر هدد سلطته الناشئة . فهنأته الاستانة على فوزه ، وأعادت اليه ابنه ابراهيم بك

ولكن انجلترا حفظتها له ضغينة ، لم تنسها مدى الدهر !

* * *

واما روح التمرد في العسكر ، فانه كان يكاد لا يفارق الجنود

غير النظاميين البتة . وكان كل فوز يحرزونه ينميه فيهم نمواً هائلا .
وذلك بالرغم من ان محمد علي طهر عسكريته من الطوائف الاكثر
نزوعاً الى العصيان ، والعبث بالطمأنينة والامن ، (كالدلاة ، مثلا ،
فانه ، بعد جلوسه على السدة بمدة يسيرة ، صرفهم عن القطر ؛
وكلف فرقة الباشية بمرافقتهم حتى التخوم السورية . على انهم لم
ينجلوا الا بعد ان نهبوا الوجه البحري نهباً مخيفاً ترتعد له الفرائص
لدى قراءة تفاصيله في الجبرتي) ، وبالرغم من انه لم يفتأ متيقظاً
لاخماد كل فتنة تبدو من الباقين ، ولكبح جماح كل من تنكب عن
جادة النظام العسكري ، ليعكف على النهب والسلب . ولكن تيقظه
هذا عينه كثيراً ما أثار حول سدته أنواء وأعاصير كادت تذهب
بها ، المرة تلو المرة

في سنة ١٨٠٧ هذه عينها ، وعقب الفوز على الحملة الانجليزية
رأى محمد علي من نزوع جنده الى السلب ، ومن تخليهم عن راياتهم ،
وانسلالهم جماعات جماعات الى الريف والعاصمة للنهب والفتك
بالاهلين ، ما رأى ، معه ، وجوب تأديبهم تأديباً صارماً ، وكانوا
أكثر من عشرة آلاف . فغادر الاسكندرية الى رشيد حيث
رمم السور والحصون ، وسار بمركب في النيل الى مصر ولكن
المركب انقلبت به أمام وردان . فاجتاز النهر سباحة ، وتابع بقية
سفرته راكباً . واذا بالجواد ، على غير عادته ، كبا وسقط على
الارض ، كما كبا جواد نابوليون الاول به بعد اجتيازه نهر النيمين



بوغوص بك

احد اعوان محمد على في المسائل المالية



مختار بك

اول ناظر للمعارف في مصر

فتطير اتباع الباشـا من الامرين ، وباتوا يعتقدون قرب وقوع شر

وقد وقع فعلاً . فان الجند ، لما أقبل محمد علي يخمد روح التمرد فيهم ، ثاروا عليه ، وأطلقوا نيران بنادقهم على منزله ، ولم يبد حرسه الشخصي الا دفاعاً واهياً عنه

فأدرك محمـد علي في الحال خطورة الموقف وحرجه المتناهي ؛ وقبـل ان يتفاقم الخطب ، وتسري روح العصيان الى اخصائه ، تخفى وتخفى معه أصدقاؤه والموالون له والمماليك الفرنساويون الذين رأيناهم ينضمون اليه ، وسار الجميع بكنوزهم الى القلعة

فلما فطن الالبانيون الثائرون الى ذلك ، أقبلوا ، اولا ، ينهبون سراي محمد علي ؛ ثم انقسموا على أنفسهم . فمنهم من قال بوجوب الانضمام الى الترك ، والعمل معاً على ما فيـه المصلحة العامة ؛ ومنهم من أبى الا العمل على انفراد ، بدون اعتراف بأية سلطة تـكون . ورأى غيرهم ان العمل في غير نهب الاهلين وسلبهم، وخطف النساء والاولاد مضيعة للوقت

فاضطربت القاهرة أيما اضطراب واختلت الحياة فيها الى درجة أنست القوم الاحتفال برؤية رمضان ! فتداخل العلماء والنقيب في الامر وما زالوا بمحمد علي حتى حملوه على الصفح عن الثائرين ومنحهم الفي كيس ؛ وما زالوا بالثائرين حتى حملوهم على قبول المبلغ

والاكتفاء به ، والاخلاد الى السكينة . ولكن أتدري ، أيها القارىء ، من دفع هذا المبلغ ؟ اهل القاهرة المساكين : فانه وزع عليهم بواسطة شيوخهم ! وكانت تعزيتهم الوحيدة ان توزيعه لم يقترن بجور أو عسف

وكان محمد علي ، منذ رأى حركات الجيش البونابرتي والجيش الانجليزي الاول الذي أخرج الفرنساويين من مصر ، معجباً جداً بالجيوش النظامية ، ومقتنعاً بان السر في انتصارات الجيش البونابرتي ، على الاخص ، على المماليك والعثمانيين راجع الى حسن نظامه . فكان يمني نفسه بانشاء جيش على طرازه . وزادت رغبته في ذلك لما علم ان السلطان سليماً الثالث أقبل على اخراج هذه الفكرة عينها الى الوجود . ولكن الثورة الانكشارية التي أثارها على ذلك السلطان المنكود الطالع عمله هذا ، فثلت عرشه وذهبت بحياته ، جعلت محمد علي يؤجل تحقيق أمنيته

غير انه بات لا يستطيع على تحقيقها صبراً ، بعد ان توالت الانكسارات على جيشه غير المنظم في حروبه مع الوهابيين ، ولا سيما بعد حادثة لطيف باشا التي رويناها . فان هذه الحادثة جعلته يعتقد انه مهما ادى للديوان من خدمات ، فانه لن يؤيده الا رغبة في تنزيله عن سدته ، وشوقاً الى تحقيق هذه الرغبة . وقد كان محمد علي حتى ذلك الحين ، صادق الولاء والاخلاص للسلطان ، لا يطمع الا في ان يكون ذراعه الايمن ، وخادمه المطيع . ولكن الريب

انتشرت في قلبه بعدئذ . وصمم من ذلك الحين على الاستقلال بمصر ، ولعلمه بانه ان لم يكن لديه جند خاص به ، مقسم يمين الولاء والطاعة لشخصه ، جند مدرب على الطريقة الغربية ، يمكنه ان يعتمد عليه كل الاعتماد في درء الملمات والتغلب على المحن ، فان تصميمه على الفوز بالاستقلال قد لا يذهب ادراج الرياح فحسب ، بل قد يفقده عرشه ، أخذت الرغبة في تحقيق أمنيته من انشاء نظام عسكري جديد لا تترك في صدره مجالا للصبر

ففي أواخر يوليه سنة ١٨١٦ أصدر أمره بانشائه ، وبصفة مستعجلة . فهاج ذلك سخط الجند لا سيما الالبانيين منهم . فانهم صاحوا : « ان هذه لبدعة ، وكل بدعة في النار ! » وشرعوا يقتلون الضباط المكلفين بالتعليم والتدريب في الشوارع ، بل في ساحة المناورات ذاتها . فاتخذ محمد علي ضد البعض منهم اجراءات صارمة . فما كان من بعض كبار الزعماء الا انهم دبروا مؤامرة لاغتياله . وفي مساء ٣ اغسطس اجتمع ثلاثة منهم في منزل زميل لهم اسمه عابدين بك ، كان قد عاد حديثاً من بلاد العرب، وطفقوا يتكلمون معه في الامر ، لكي يستميلوه اليهم . واطلعوه على ما قر عليه الرأي من مباغتة محمد علي في منزله لدى بزوغ فجر الغد . وألحوا عليه بان يكون عوناً لهم ، ويشاركهم في عملهم . فتظاهر بالقبول . ثم تذرع بحجة . فتركهم وتنكر ، وركب حماراً ، وأسرع

الى محمد علي وأطلعه على ما قيل له . ثم عاد الى منزله ، ولم يدر أحد من الموجودين فيه بما تم

فأسرع محمد علي واستدعى اليه فرقة من الجنـد كان يثق بها ، فأقامها على حراسة قصره . وأخذ معه نفراً عديداً من المخلصين له الولاء ، وسار بهم الى القلعة . فدخلها في منتصف الليل من باب الجبـل

ولما بزغ الفجر ، رأى زعماء المتآمرين ان التدبير قد خاب . فخافوا وما حركوا ساكناً . ولـكن الجند البسيط أبى الا الاندفاع في تيار فتنـة عسكرية هائلة ، لم يعد لها من غرض سوى النهب والسلب ، وما عتمت نارها ان خبت من تلقاء نفسها : لانها كانت فتنة لا يديرها رؤساء . على ان محمد علي اضطر ، مع ذلك ، ان يعد بقسم صريح بعدم العود الى فـكرة انشاء النظام الجـديد . ولـكنه اشترط ، من جهته ، ان لا يحمل الجند أسلحتهم الا متى كانوا في الخدمة

هذه المؤامرة ونتائجها جعلته يدرك انه لا سبيل له الى تحقيق أمنيته الا اذا تخلص من جماهير الجند المأجور غـير النظامي الذي تساعد به على البلوغ الى الذروة . فما انفك يرسل فيالقه الواحد تلو الآخر الى البلاد العربية ، أولا ، لمحاربة الوهابيين ؛ فالى مجاهل السودان ، ثانياً ، للبحث عن مناجم الذهب والاتيان بالعبيد ، حتى تمكن من افناء اكابر الزعماء المعارضين في انشاء النظام الجديد ،

ومعظم القوات المتململة والمتذمرة منه. وتسنى له بذلك التخلص من تمردات الجند، والنظر بطمانينة الى المستقبل

* * *

واما المماليك فان محمد علي لم يجعل عينيه تغفلان لحظة عن ان النزاع بينه وبينهم لم يكن بنزاع على السلطة والحكم فحسب، بل كان نزاعاً على البقاء والحياة. وانه يلزمه اذاً ان يبرز لهم تارة في جلد الثعلب، وطوراً في جلد الاسد، وفقاً للفرص والظروف. فأول ما كان من أمره معهم انه أرسل اليهم من اخصائه رجالا عرضوا عليهم ادخالهم في العاصمة، خلسة، اذا هم اتحفوهم بمبلغ من المال عينوه لهم. فاطمأن المماليك اليهم لما رأوا كلامهم معززاً بكتابات، من السيد عمر مكرم ومن اكابر المشايخ. واعتقدوا ان الرأي العام عاد الى العطف عليهم. وكان النيل قد بلغ الوفاء. فاتفقوا على اغتنام فرصة خروج الوالي مع الناس للقيام بمراسم العيد، والدخول الى العاصمة على غرة من الجميع ولكن محمد علي أمر بقطع الخليج في الليل وبترك أبواب المدينة مفتوحة، بلا حراس، فلما أتاها المماليك ووجدوها على تلك الحالة، توطد فيهم اليقين بنجاح المؤامرة، ودخلوا في كبكبة عظيمة، وخلفهم نقاقير كثيرة وجمال واحمال. وقصد فريق منهم الجامع الازهر، وذهبوا الى بيت السيد عمر. فأغلق في وجههم الباب. فقصدوا بيت الشيخ عبدالله الشرقاوي ودخلوه، فوافاهم السيد عمر اليه

وفي تلك الاثناء ، سار فريق آخر الى باب زويلة وتقدم الى جهة الدرب الاحمر . فأطلق عليهم العساكر الساكنون هناك الرصاص . فرجعوا القهقرى . واذا بفرقة من الجند قد أخذت عليهم الطريق . ففقدوا صوابهم . وترجل بعضهم ولجأ الى جامع البرقوقية . وذهبت طائفة كبيرة منهم تعدو بخيولها الى جهة باب النصر . فاذا به قد أقفل

فنزلوا هم ايضاً عن خيولهم ، وتسلق بعضهم الاسوار ، فنجا بنفسه ؛ وتفرق آخرون في العطوف واختفوا في الجهات . واما الذين دخلوا في جامع البرقوقية ، فان اثنين منهم فقط تمكنوا من الخروج والذهاب الى المماليك النازلين في بيت الشيخ عبد الله الشرقاوي ؛ وبعد ان اخبروهم بالواقع ، فر الجميع . واما الباقون فان العسكر احتاطوا بهم ، واحرقوا عليهم الباب ، وهاجموهم وقبضوا عليهم ، وعروهم من ثيابهم ، واخذوا ما معهم من الذهب والنقود والاسلحة . وذبحوا منهم نحو الخمسين ذبح الاغنام ، وسحبوا خمسين آخرين عراة موثوقي الايدي الى محمد علي . وكان قلقاً ، ينتظر نتيجة تدبيره . فلما رأى المماليك يساقون اليه على تلك الحال ، ابتهج وجهه بفرح قلبه . فوجه الكلام الى احمد بك تابع البرديسي ، وكان — حين الاستيلاء على دمياط في ايام خسرو — قد عين اميراً عليها . وقال له ، متهكماً : «أوقعت في الشرك ، يا احمد بك ؟» فطلب هذا ماء . فحلوا وثاقه وقدموا له قلة . فخطف في الحال يطقاناً من

وسط بعض الواقفين ، ووثب على الباشا يريد قتله . فصعد محمد علي بسرعة بضع درجات من سلم بيته ، ونجا بذلك من الموت . وتكاثر القوم على احمد بك واثخنوه جراحاً ، فوقع ميتاً ، ولكن بعد ان قتل بعض انفار من مهاجميه . ثم وُضع باقي المأسورين في القيود وربطوا في حوش الدار ، وهم على حالتهم من العري والذل . وفي اليوم الثاني أحضر جزارون وأمروا بسلخ رؤوس القتلى بين يدي أولئك المعتقلين وهم ينظرون ؛ وأحضرت جماعة من الاسكافيين، فحشوها تبناً وخيطوها . ثم لما جن الليل ، قتل المعتقلون ، ايضاً ، وعمل برؤوسهم ما عُمل برؤوس رفاقهم في الصباح . وأرسلت الرؤوس كلها الى الاستانة برهاناً على الايقاع بالمماليك . وكانت هذه ضربة قوية فلت عزم الامراء ، فابتعدت جموعهم عن مصر ، وذهبت الى اسيوط

وبينما محمد علي يتجهز لقتالهم ، اذا بعون اتاه من حيث لم يكن لينتظر : فان ملاك الموت ، مرّ ، في اواخر سنة ١٨٠٦ بظال عثمان بك البرديسي أحد زعيمي الامراء الكبيرين ، متقمصاً في شخص طبيب مغربي أرسل اليه من مصر ليعالجه من حمى صفراوية انتابته . فارداه ، وهو في الثامنة والاربعين من عمره . نخاص محمد علي ، بذلك ، من عدو باسل كان بمثابة سيف بتار مسلول ابداً في وجهه . — وقد رأت بلدية الاسكندرية ، في عهد خلفاء الباشا العظيم من اسرته الفخيمة ان تطلق اسم ذلك البطل المهيب والفارس الصنديد

على احد شوارعها تخليداً لذكره ، وبمثابة اعتراف من محمد علي — وهو في جنة الخلد ، حيث لا عداء بين ساكنيها — بفروسية ذلك العدو وشجاعته وشدة بأسه . ومحمد علي خير من يعترف لعدو بالفضل الذي فيه !

وكان الالفي — الزعيم الكبير الثاني — بعد ان حاصر دمنهور ، مدة ، واضطره الى رفع الحصار عنها امتناع الاقوات عنه بسبب هجر فلاحي الريف المجاور بلادهم حوله ، قد سار الى الصعيد ، والغيظ والحنق يملآن فؤاده . فجاءه رسل من لدن الاميرين ابراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن ، يدعونه الى وضع خطة سير يتبعها الكل تحت زعامته . فتقدم الالفي نحوهما ، وهو قليل الوثوق باخلاصهما ، واتى واقام معسكره في شبرامنت . ولكنه كان مكتئب المزاج ، حاده الى درجة لم يكن أحد ليجسر معها ، ان يخاطبه

وفي ظهر يوم ٣٠ يناير سنة ١٨٠٧ خرج للتنزه ، راكباً ، لا يتبعه الا بعض الحراس على اقدامهم . فرأى عرباناً من جيشه حطوا بجمل في حقل مزروع غلة ، واقبلوا يتلفونه . فاشتعلت ثورة الغضب في رأسه . فانقض على اولئك الناس ، وقتل بيده اربعة منهم بينهم شيخ من مشايخ القبائل . ولكن هذا الانفعال الشديد قلب كل كيانه . فلما عاد الى خيمته اعتراه قيء مستمر كله دم . وما لبث الامير قليلا الا ورأى ملاك الموت قادماً نحوه بمنجله

المهلك . فقال : « لقد قضي الامر ، وبات القطر المصري من نصيب محمد علي ، لا ينازعه فيه منازع ! »

ثم بعث واستدعى رجال لوائه . فاوصاهم بعضهم ببعض خيراً ، واوصى بدفنه في البهنسة حيث توجد قبور الشهداء — ولا ندري اي شهداء عنى — وما انتصف الليل الا وكان في عداد الاموات ، وليس له من العمر سوى خمس وخمسين سنة . فازرق جسمه ، وظهرت عليه عوارض جعلت الجهلاء من الناس يعتقدون انه مات مسموماً . ولكنها عرّفت الخبيرين بان موته سببه وباء عرف فيما بعد باسم الكوليرا

فتخلص محمد علي بوفاته من خصم عنيد في وقت مناسب للغاية . وبلغ من ابتهاجه بذلك انه اعطى البدوي الذي اتاه مبشراً بموت الالفي خمسة اكياس

وانما قلنا ان ملاك الموت خلص محمد علي من الالفي في وقت مناسب للغاية ، لان الانجليز في ذلك الحين ذاته — وكانوا قد اعلنوا الحرب على تركيا — كانوا يستعدون لغزو القطر المصري . ولو بقي الالفي حياً لساعدهم مساعدة فعالة

على ان محمد علي لم يكن يعلم حينئذ ، بالضبط ، مقدار الخدمة الجليلة التي اداها له ملاك الموت . وكل ما اعتقده هو أن هلاك كبيري المماليك اعدائه يسهل عليه جداً مهمة الفوز عليهم . واخذ يستعد لذلك . فعبأ جيشاً زاهراً ؟ وملأ ثمانمائة مركب مؤناً وذخائر

وتجهز للزحف اليهم . ولكنه أصيب ، هو ايضاً ، بالكولرا ـ وهو في وسط تجهيزاته . فاقام طبيبه الايطالي ، المسيو بنزري يعالجه ، وهو يكاد يعتقد ـ في اليوم الاول ـ ان الشفاء متعذر ، وان شعلة الحياة لمطفأة . حتما . ولكن بنية محمد علي القوية تغلبت على الداء . وما مضت بضعة ايام الا ولم يعد لذلك المرض من اثر . وكل ما كان منه انه اظهر مقدار عطف العلماء والاعيان على محمد علي ، وحبهم الشديد له . فلما نقه تماماً ، عهد في أمر المحافظة على الأمن في العاصمة الى كتخداه محمد اغا طبوز اوغلو ؛ وسار في ١٢ فبراير سنة ١٨٠٧ بثلاثة الاف من المشاة ، وثلاثة الاف فارس ، وستة مراكب مسلحة الى قتال المماليك . وكانوا قد اجتمعوا في المنيا وضواحيها . ولكنه وقف في بني سويف واقدم يتخابر مع اعدائه بواسطة العلماء . وبينما هؤلاء يفاوضونهم اعمل محمد علي نفوذه في العربان الموالين لهم ؛ وفي ذات ليلة مدلهمة الظلام ، تقدم بالفي فارس وبارشاد اولئك العربان انفسهم ، الى المعسكر الذي كانت حراسته موكولة اليهم . واذا بالمماليك نائمين فيه نوماً عميقاً . فانقض محمد علي عليهم ، وفتك بهم فتكا ذريعاً ، واستولى على كل مدافعهم ومهماتهم ، وتعقب الفارين حتى حدود الصحراء . وبعد ان اوقع بهم في منقباد ، ايضاً ، اقام معسكره في اسيوط

وانه لفي سكرة فوزه ، واذا بالنجب اتته بانباء ظهور العمارة الانجليزية بحملة الجنرال فريزر . فارسل محمد علي ، في الحال ، الى

العلماء المتفاوضين مع المماليك ، بالاتفاق مع هؤلاء الامراء على ما يطلبونه ، بشرط ان ينضموا اليه بلا تردد في قتال الانجليز ، أعداء الجميع

فابرم العلماء مع المماليك اتفاقاً مبدئياً ، وقر الرأي على ذهاب الامراء الى مصر لعقد الاتفاق النهائي هناك ، بحضور العلماء والوجاقلية والاعيان . وعلى ذلك نزل الجيشان : جيش محمد علي وجيش المماليك مجرى النيل ؛ الاول على ضفته اليمنى ، والثاني على ضفته اليسرى

ولما انسحب الانجليز رأى محمد علي ان القطر ، لا سيما الريف بات منهوكا ناضب المعين وان فلاحيه باتوا يفضلون الموت على الاشتغال باعمال فلاحة لا يجنون منها الا خرق حرماتهم والاذى ، وان المدن ذاتها باتت بائرة التجارة والصناعة لا ثروة فيها

فرأى أن يفاتح جاهين بك ، الزعيم الذي أخلف البرديسي والالفي على لواء مراد ، في أمر مصالحة نهائيـة . فقبل جاهين المفاوضة ، واتفق مع الباشا على الاقامة في الجيزة ، وعلى ان يكون له ايراد عشر نواحي في الجيزة وثلاثين ناحية في البهنسة وايراد الفيوم برمته . وجميع ذلك خال من كل ضريبة

فلما وقع الفريقان هذا الاتفاق ، ذهب جاهين لزيارة الباشا . فاكرم محمد علي وفادته ، ودعاه الى تناول طعام الغداء على مائدة طوسن ابنه . فحذا مثل جاهين بك بغيره من امراء المماليك الى

الاقتداء به ، حتى ان كثيرين منهم تركوا حياتهم البدوية واتوا وانتظموا تحت رايات محمد علي ، وحتى ان ابراهيم بك الكبير نفسه أرسل الى القاهرة مرزوق بك ابنه بحاشية عديدة

فادى ذلك الى وضع مشروع اتفاق عام ، منح البكوات بمقتضاه حق التمتع بايرادات بلدان عينت لهم ، على شرط ان يقدموا للميري كمية معلومة من الغلال . فوضعوا ايديهم على البلدان . ولكنهم لم يقدموا الا جانباً يسيراً مما تعهدوا بتقديمه . فاضطر الباشا ان يخرج الى محاربتهم بجيش يربو عدده على ستة آلاف مقاتل . غير انهم لما رأوا هـذه القوة ، اذعنوا ! ووقعوا اتفاقاً جديداً على قاعدة الاتفاق الماضي . لم يزد على هذا شيئاً سوى فيما حتم على الامراء من سكنى القاهرة . فاتاها اكثرهم ثقة بكلام الباشا ، ولاقوا منه كل ترحاب واكرام

غير ان المماليك ما لبثوا أن رأوا محمد علي منهمكا كل الانهماك في اعداد مهمات حملته ، براً وبحراً ، لقتال الوهابيين ، ورأوه ينفر منه قلوب الاهلين بالضرائب والمغارم التي الزمته شئون تلك الحملة بفرضها عليهم ، الا واخذ البعيدون منهم عن العاصمة يقتربون اليها ، والموجودون فيها يخامرون في السر . وكان محمـد علي يوماً في السويس ، يلاحظ بنفسه سير الاعمال هناك ؛ فورد اليه نبأ يفيده بان وراء الاكمة مؤامرة غرضها مهاجمته حين عودته الى مصر ، والاستيلاء على شخصه في الطريق . فقام من ساعته ، وركب

هجيناً من اسرع الهجن ، وقطع المسافة ما بين السويس ومصر في ثماني عشرة ساعة ، بحيث لم يستطع احد من رجال حرسه مواصلة السير معه ، الا سائس تعلق بلجام هجينه ، وما فتئ يجري حتى دخل القاهرة ، ووقع ميتاً عند باب سراي مولاه

فالقى ذلك الرجوع السريع الرعب في قلوب المتآمرين وثبط عزائمهم . على ان محمد علي لم يبد اشارة تدل على انه مطلع على سر ما دبر له . وبقي وجهه باشاً . وتصادف يوماً ان عياراً نارياً وجه اليه وهو يجتاز احد شوارع المدينة . فمرت الرصاصة بملابسه ، وقتلت ضابطاً بجانبه . فاوصى من معه بالسكوت وعدم افشاء الحادثة . ولكنه أقبل يتخذ تدبيراته سراً ، ويحشد جنداً عظيما حول شبرا

فلم يُرض المماليك ذلك . وما كان من جاهين بك الا انه اتلف ، يوماً ، جميع اثاث بيته الذي لم يمكنه نقله معه ؛ ثم غادر مقره في الجيزة ، وانضم الى رفاقه القادمين من الصعيد . فلم يعد مفر من الحرب

فدارت ، وكانت سجالا . فان المماليك هزموا الالبانيين والاتراك ، أولا ، في واقعتين . ولكن محمد علي سار الى الامراء بنفسه ، واوقع بهم عند جسر اللاهون . فضربهم ضربة أليمة ، ظنها القاضية . وأرسل بها بلاغاً الى مصر كان الاول من نوعه ، وتاريخه ١٤ اغسطس سنة ١٨١٠ الموافق ٢٥ رجب سنة ١٢٢٥ . ثم عاد

الى مصر ، ليتمم تجهيزات الحملة على الوهابيين . واذا بباش اغاي السراي السلطانية قد حضر اليه بسيف وخنجر من الاستانة ، وبرتبة الباشوية وطوخين الى طوسن ابنه المعقود له لواء تلك الحملة، وبتعليمات بشأنها للباشا وولده . فقرئت المرسومات السلطانية ، علناً ، وصدرت الاوامر بجمع كل المؤن اللازمة ، وارسالها الى السويس . وأمرت العساكر المؤلفة منهم الحملة بالاحتشاد في قبة العزب

غير ان محمد علي – بالرغم من أنه قال في بلاغه المرسل الى القاهرة ان دولة المماليك قد زالت تماماً – لم يكن مطمئناً البتة من جهتهم ، لما كان في الماضي من عبر بليغة له . فهل يوجه الآن ، جميع قواه أو معظمها الى قتال الوهابيين ، ويبقي القطر بلا حماة ، وسيف الامراء مسلول فوق رأسه ؟ ان هذا لم يكن ممكناً . فأمر – اذن – رؤساء جنده المتعقبين المماليك بعد هزيمتهم عند جسر اللاهون بمطاردة الفارين باستمرار حتى يجلوهم عن القطر المصري . فصدع قواده بأوامره . وما زالوا بمن لم يشأ المصالحة من الامراء حتي أجبروهم على اجتياز الشلالات الاولى ودخول بلاد النوبة . وأما من شاء المصالحة منهم ، فان محمد علي فتح له ذراعيه ، وأغدق عليه شتى النعم . فعاد الكثيرون من الامراء الى القاهرة ، جماعات جماعات ، وعلى رأسهم جاهين بك عينه ؛ وأقاموا في المنازل الفخمة التي خصصها محمد علي لهم ، يلهون وينعمون . وأقبل الامير يتمم ما نقص من لوازم حملته

فلما كملت معداتها ، عين يوم الجمعة ـ أول مارس سنة ١٨١١ـ لسفرها . وأعلن الباشا عزمه على اقامة مهرجان في القلعة للاحتفال بتوديعها ، والباس ابنه طوسن باشا رسمياً فروة الامارة عليها . فلما كان مساء آخر يوم من شهر فبراير ، بعث الباشا دعوة لحضور ذلك المهرجان الى جميع أرباب الوظائف المدنيـة والعسكرية في مصر . وطلب الى أمراء المماليـك القدوم اليه بملابس التشريفة الـكبرى

فلما كان صباح يوم الجمعة المضروب موعداً ، لم تـكد الشمس تعلو الافق ، الا واحتشدت الجماهير العديدة في الطريق المؤدي الى القلعة ، للتفرج على مواكب العسكر العثماني والالباني السائرة الى ذلك الحصن المنيـع براياتها وطبولهـا ، وبالاخص على موكب الامراء المماليك الفخم الذي لم يكن له مثيل في الوجود ، في بهجة ملابسه ، وجمال هندامه، وجلال خيوله ، وسطوع أسلحته المفضضة والمذهبة بل الفضية والذهبية. وكان عدد من لبى الدعوة من الامراء اربعمائة وسبعين . فلما اجتاز اخر أمـير منهم باب العزب ـ وهو باب القلعة من جهة الغرب ، ويُفتح الآن على ميدان صلاح الدين ، الذي كان يقال له في ذلك العهد ميدان الرميلة ـ لما اجتاز آخر أمير منهم باب العزب ، انغلق مصراعاه وراءه . وأقامت اقوام المتفرجين تنظر فتحه لخروج الداخلين منه

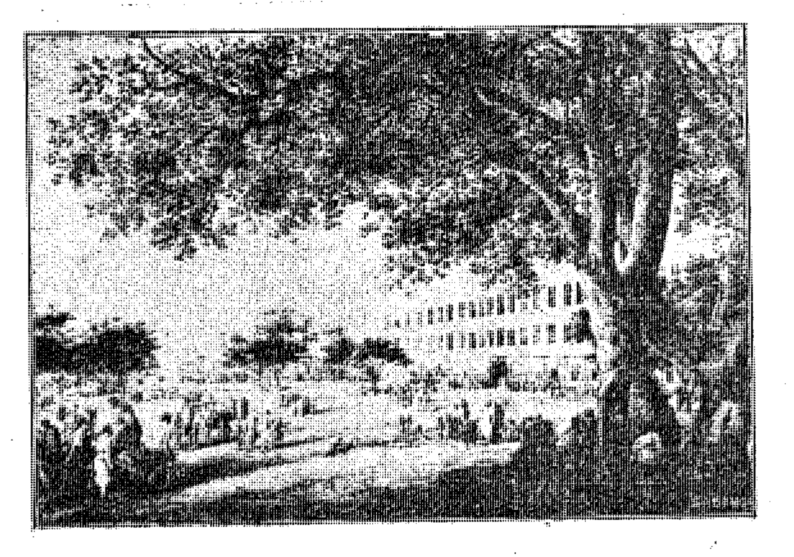
وكان الباشا قد قضى ليلته في سراي القلعـة ، وقام مبكراً

كعادته . فاستقبل وفود القادمين بكل بشاشة وحفاوة . وبالغ ، على الاخص في اكرام الامراء المماليك . فانه قدم اليهم القهوة ، وما فتىء يحادث أكابرهم ، حتى اتاه من أخبره بان المدعويين استقروا في أماكنهم وان جميع فيالق العسكر اصطفت في مواضعها فنهض ، وقام لنهوضه محادثوه . وامتطى أكابر المماليك جيادهم ، ووقفوا بها على رأس فيلقهم الباسل

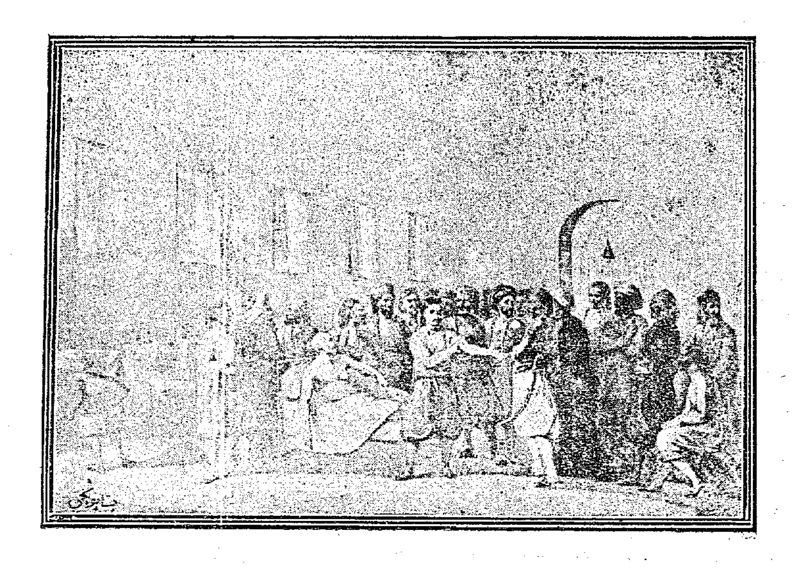
فلما تمت الحفلة ، وقلد الامير طوسن اللواء أذن بالانصراف. فتقدم الانكشاريون المماليك مباشرة ، وسار الالبانيون خلفهم . وتلا الالبانيين فيلق مشاة يقوده الكتخدا ؛ ومشى الجميع نحو باب العزب

فنزل الانكشاريون المنحدر اولا ؛ ثم تبعهم المماليك ، على بعد قليل ، حتى اذا خرج آخر انكشاري من الباب ، كان الاربعمائة والسبعون اميراً مملوكا يشغلون بجيادهم المنحدر كله من اسفله الى اعلاه

حينئذ حدث امران . الاول : ان باب العزب أقفل حالا بعد خروج آخر انكشاري منه . والثاني : ان صالح إغا اق قوش اصدر أمره الى البانييه ، فانسلوا من وراء المماليك ، وتسلقوا الصخور المحيطة بالمنحدر ، واسرعوا فكمنوا وراءها من الجهتين ، ومن اسفل الى فوق . وفي الحال تقدم الفيلق الذي يقوده الكتخدا وانتشر على الاسوار



قصر العيني



كلوت بك يلقح نفسه بالطاعون

حينئذ دوت طلقة مدفع . فما شعر المماليك الا والرصاص يتناولهم من كل جانب ، وهم لا يستطعون عن انفسهم دفاعاً . وما هي الا لحظة وتكدست في الممر الضيق جثث الرجال والخيل ، بعضها فوق بعض وجعلت الحركات متعذرة أكثر مما كانت

اما المماليك الذين وصلوا الى باب العزب ، ورأوه مقفلا ، فانهم لووا إعنة جيادهم ، وقصدوا الرجوع . ولكن حركتهم هذه زادت الذعر ذعراً والخبل خبلا . واما المماليك الذين كانوا على رأس المنحدر ، فما دوى حولهم الرصاص الا ولووا ، هم ايضاً ، اعنة جيادهم ، وقصدوا البلوغ الى داخل القلعة . ولكن فيلق البيادة المنتشر على الاسوار اصلاهم ناراً حامية ، اردتهم بالعشرات

فكبر الهول واشتد البلاء

ورأى المماليك التعساء ـ وموت غير منظور يحصد صفوفهم حصداً ـ ان لا فائدة لهم من جيادهم ، فترجلوا . وتعروا بسرعة من ملابسهم الثمينة الفاخرة ، التي لم يكن من شأنها الا ان تعيق حركات ايديهم وارجلهم في ذلك الموقف الرهيب ؛ واقبلوا يجرون ، وسيوفهم مشهرة في يد ، وطبنجاتهم في الأخرى ، يبغون لقاء عدو يثأرون بقتله للكارثة التي حلت بهم

ولكنهم لم يجدوا احداً ، واستمر الرصاص الخفي الممطر من كل صوب يحصدهم حصداً . فسقط جاهين بك امام عتبة قصر صلاح الدين . وبلغ سليمان بك البواب ، والدم يسيل من كل

اعضاء جسمه ، باب السراي ؛ فانطرح على عتبته ، وصاح : « في عرض الحريم ! » ـ وكانت استغاثة مقدسة في ذلك العهد ـ ولكن السيف تناول رقبته ، فقطعها ، وجرت جثته ، مهينة ، الى مكان بعيد . وتمكن سبعة او ثمانية من الامراء من الوصول الى المكان الذي كان طوسن باشا مقيما فيه . فتراموا على قدميه ، وسألوه الامان. ولكن الشاب لم يجسر على مخالفة اوامر ابيه ، وتخلى عنهم . فقتلوا صبراً بين يديه

وما انفك الرصاص يدوي ويتساقط كالمطر والمماليك يقتلون ، حتى فنوا عن آخرهم . ولم ينج منهم الا واحد فقط اسمه امين بك ـ كان قد تخلف ، في الصباح لمهم ، ولم يأت القلعة الا واول الموكب هالّ من بابها . فوقف ينتظر ريثما يخرج اخوانه ، لينضم اليهم . ولكنه لما رأى الباب يقفل ، وسمع دوي البنادق ، ادرك ان هنالك غدراً . فلوى عنان جواده ، وفر الى البساتين ، ومنها الى سورية

على ان هذا ليس ما تناقلته الالسن عن كيفية نجاته . والرواية التي قرت في الاذهان ، هي : انه لما دوى نذير الموت ، وثب بحصانه الى داخل القلعة ، يبحث عن منفذ ، فلم يجد ، في كل جهاتها ، سوى سور ارتفاعه ستون قدماً . فلم يتردد ، وفضل نوع موت فيه بصيص أمل بالنجاة على نوع موت لا أمل فيه . فأجرى حصانه ، وقفز به من فوق السور . فقتل الجواد ونجا الفارس .

ولا يزالون حتى يومنا هذا يشيرون الى المكان الذي قفز منه ، ويدعونه محل وثبة المملوك ! »

* * *

لما انتهت المأساة ، ورأى الالبانيون انه لم يعد هناك مملوك الا وهو مردى ، برزوا من مكامنهم . ونظروا ، بدون خوف لاول مرة في حياتهم ، الى اولئك الفرسان المجزورين . فأجهزوا على الجرحى ، ومثلوا بالقتلى ، واستولوا على الاسلاب

* * *

واما محمد علي ، فانه بعد ان رتب كيفية خروج الموكب ، عاد الى قاعة الديوان الكبرى واقام فيها ، يحيط به امناؤه . ومع انه لم يهمل في اتخاذ احتياطاته شيئاً ، الا ان القلق كان بادياً عليه في روحاته وجيئاته الصامتة في طول تلك القاعة وعرضها . ولما سمع طلقة المدفع المنذرة ببدء المجزرة ، وقف بغتة ، وجرى دمه نحو قلبه بسرعة : فعلا وجهه الاصفرار . ولكنه ما اطل من نافذة ، ورأى الفرسان تردى تباعاً ، والرؤوس تقطع الا وانتظمت دورة الدم في عروقه ، وفارق الاصفرار وجهه . غير انه لم ينبس بكلمة واحدة . ولما وافاه الجنوي مندرتشي ، أحد اطبائه ، وقال له مهنئاً : « أجل ! هذا امر قد فرغ منه ــ واليوم يوم سعيد لسموكم ! » لم يجب بشيء . ولكنه طلب ماء وشرب جرعاً طويلة !

* * *

وبينما كانت المأساة تجري في القلعة مجراها ، سارت النجب بكتب الباشا الى حكام الاقاليم ، تأمرهم بقتل كل مملوك يوجد في دائرة أحكامهم ، وكل مملوك يقع تحت أيديهم . فنفذ الكشاف الاوامر ، وتباروا فيمن يرسل الى القاهرة رؤوساً أكثر من زميله ، حتى بلغ عدد القتلى في الاقاليم ألفاً وزاد

ولما سمع المماليك الذين كانوا لايزالون في الصعيد بانباء الكارثة التي حلت بهيئتهم ، سقطت قلوبهم ، وخارت هممهم ، فأرسلوا الى محمد علي يطلبون ان يعين لهم المكان الذي يختاره لاقامتهم . فيعيشوا حياتهم الباقية في سلام . فبعث اليهم جيشاً تعقبهم بعنف وبلا ملل ، وما زال يطاردهم حتى أجلاهم عن البلاد ، والجأهم الى الاقامة بدنقلة ، حيث عاشوا معيشة مهينة ، وماتوا موتاً لم يلفت أحداً ؟

هكذا كانت آخرة هذه الطائفة التي حكمت مصر ما يزيد على خمسة قرون ونصف . وهكذا فرغ محمد علي من أمرهم . فزالت بزوالهم آخر الاشواك المحيطة بسلطته ، وأخذ خشب سدته يملس وينعم تحته

وكأني بالتمثال المقام له في الاسكندرية يمثله في هذه الاونة من حياته ، حين نزوله من القلعة ، ليهدىء روع العاصمة المضطربة ، وليتقبل التهانىء في بيت الشيخ الشرقاوي . فانك اذا مامررت أمامه ، وشخصت اليه ، برهة ، كما تشخص الى رجل حي ، تصمت أمام

أعماله الارض إعجاباً ، رأيت كأن ناراً تتقد في حدقتيه . وشعرت بانها نار هزة المجد وعزة القلب الذي بلغ مقصوده . فتسودّ أمام مخيلتك ـ في تلك اللحظة ـ لحيته البيضاء ، وتدرك من جلال اليد الموضوعة على خاصرته القوية ، ومن عظمة اليد القابضة على زمام حصانه النافر تحته والمختال تيهاً بالراكب على صهوته ، ان محمد علي أدرك مناه ، وأذل الصعاب حوله ؛ وتغلب على مقاوميه وأعدائه ، وثبت قدميه فوق القمة التي بلغ اليها

***

واما صعوبة المال ، فان محمد علي عالجها في بادىء الامر بالقبض على متولي الحسبة العام ـ وكان اسمه جرجس الجوهري ـ ومطالبته بحساب السنوات الخمس الفائتة . فتحصل منه ، بذلك ، على اربعة آلاف وخمسمائة كيس

وما عمله بالمعلم جرجس الجوهري ، عمله بباقي متولي الحسبة في الاقاليم . فاجتمع لديه من المتأخر بين أيديهم مال وفير

ثم أعاد العمل عينه ، مرة أخرى ، فاستخلص مالاً جزيلاً . ولكن المعلم جرجس الجوهري خاف تجدد هذا الارهاق في المستقبل : ففر والتجأ الى المماليك

ثم عمد محمد علي الى طرق أخرى : فاستولى ، يوماً ، على بضائع قافلة أتت مصر من السويس ، ولم يرفع يده عنها الا بعد ان دفع له أصحابها الف كيس . واتهم ، يوماً آخر ، البطرك الرومي بانه ساعد

جرجس الجوهري على الهرب ؛ وفرض عليه مائة وخمسين كيساً . ووضع ، يوماً ثالثاً ، يده على عقارات نساء المماليك ، ولم يردها الى صاحباتها ، الا مقابل ذهب رنان فاضت أيديهن له به . وضبط ، مرة ، خمسمائة جمل محملة تبناً ، ولم يخل سبيلها الا مقابل دفع التجار له ثلاثين فرنكا عن كل أردب

ولكنه بالرغم من ذلك جميعه ، ما فتىء ينظر الفراغ ملازماً لخزائنه . فرأى انه لا بد له من فرض ضريبة عامة جديدة . وتحاشياً لتنفير الناس منه ، جمع العلماء وكبار الوجهاء ، وقال لهم : « ان العساكر باق لها ثلاثة آلاف كيس . ولا أعرف لتحصيلها طريقة . فانظروا رأيكم في ذلك . اما أنا ، فأني عازم — بعد دفع المتأخر — على تسريح هؤلاء العساكر ، وتسفيرهم الى بلادهم ، تخفيفاً للاعباء العمومية . وان أبقي منهم الا من كان أمر الحكم في احتياج اليه وأرباب المناصب ! »

فكثر التروي في الامر ، وتعددت الآراء ، فاقترح محمد علي ان يصرح له بقبض ثلث ايراد الملاك والملتزمين . ولما كان القوم المجتمعون كلهم ملاكا أو ملتزمين ضجوا وقالوا : « قد يصير هذا عادة ! وتضيق في وجوه الناس أبواب الارتزاق ! »

فقال محمد علي : « نكتب فرماناً ، » ونلتزم بعدم عود ذلك البتة . ونرقم فيه « لعن الله من يفعلها مرة أخرى ! » فرضي الناس وانفرجت بذلك الازمة المالية — نوعاً ما

ولكن بقرات الانفاق العجاف ما فتئت تأكل بقرات الايراد السمان ، وتتابع ما ذكرنا من الحوادث ما فتىء يثبت قدمي محمد علي في المنصب الذي أقام على سدته ، ويقلل اذاً من احتياجه الى الملاطفة والعرف

فشرع — مع توالي الايام — يزداد جسارة في طرق أبواب لجمع المال الذي يعوزه ، لم يكن ليفتق الى وجودها الا ذهن كذهنه . فاحتكر ، أولا ، التبغ والتنباك . ثم أقدم على تنقيص كمية الذهب من العملة مع ابقائها على قيمتها في التداول بين الناس ؛ ثم أرهق ، مرة أخرى ، عمال الحسبة ارهاقاً جعل الكثيرين منهم يهجرون البلاد . ثم زاد الضرائب عامة بمقدار الثلث . ولما لم يكف هذا جميعه — لان ضرورة التغلب على الصعاب الاربعة التي قلنا عنها كانت تستلزم انفاق الاموال بكف سخية للغاية — تجاسر محمد علي واستولى بتصريح من العلماء ورجال الافتاء على نصف ايرادات أوقاف الجوامع والمساجد ؛ ثم ما لبث ان استولى عليها كلها

ولم يقف عند هذا الحد ؛ بل أمر بفحص جميع الرزق والاوقاف ، وأنكر على معظمها الصحة ، وأمر كشاف الاقاليم بالاستيلاء باسم الحكومة على الاطيان المذكورة في تلك الحجج . ولم يبق من الموقوف ، على أصله ، الا ما كان عقاراً مبنياً أو بستاناً

فاضطرب المستحقون ، وازدحموا في الازهر . وأقسم العلماء

بزعامة السيد عمر مكرم بالموت في سبيل الدفاع عن حقوق الشعب وعن أملاكهم

فلما نمي خبر اجتماعهم الى محمد علي ، أرسل اليهم يستدعيهم للمداولة معه . فأبوا الا اذا الغى الضرائب التي أرهق بها العباد : فان لم يفعل ، فانهم يبطلون التدريس ويعطلون اقامة شعائر الدين ويكون هو المسئول

فقال لهم المندوب : « اتقوا غضب الباشا : فانه رجل شديد الانفعال . وتعالوا اليه للاتفاق ! »

فأصروا على عنادهم ، وسلموا الى المندوب شكواهم مكتوبة

فمضت خمسة أيام ،ولم يأتهم رد . فملوا الانتظار ، وذهبوا جميعاً الى دار ناظر المهمات للاستفهام . فقال لهم هذا الضابط : «ان الباشا مستعد لسماع أقوالكم على شرط ان تذهبوا اليه ! »

فأوفد المشايخ اثنين منهم الى محمد علي . فاستقبلهما ببشاشة ، وقال : « أبلغا اسيادنا العلماء اني مستعد دائماً لقبول نصائحهم ، حتى لو كانت زجراً . ولكني لا اقبل مطلقاً الاجتماعات والمخامرات والمؤامرات . فقولا لي من هم الذين اقسموا يمين المقاومة لي ! »
فلم يجيبا وعادا الى قومهما بما دار بينهما وبين الباشا من حديث

وكانت نيران الحسد ترعى ، منذ مدة ، قلوب المشايخ ، من السيد عمر مكرم لمنزلته الرفيعة عند محمد علي . وكان النقيب ، في هذه الحادثة ، روح المقاومة ؛ وبلغ به التحمس فيها ، أنه قال في

اجتماع تال : « اننا نرفع أمرنا الى الباب العالي ، اذا استمر الباشا على غيه . واني لاتكفل بانزاله عن السدة التي رفعته ، انا ، اليها ! ».

فاغتنمها المشايخ فرصة للايقاع به عند محمد علي ، وبلغ من تحاملهم على الرجل انهم حرضوا الباشا عليه ، قائلين : « لا تخفه ؛ فانه لا شيء بلانا ! » فاكرمهم محمد علي ، وبالغ في تقديم التحف اليهم . ثم افهمهم بانه انما استولى على اوقاف المساجد ليصلح ما فسد من أمر جباية الضرائب !

وبعث ، بعد ذلك ، يستقدم السيد عمر مكرم . فرفض النقيب الذهاب . فاعاد محمد علي الكرة . فاجاب النقيب : « اذا كان لا بد للامير من مقابلتي ، فليوافني الى بيت الشيخ السادات ! »

فارسل محمد علي ، حينئذ سلحداره اليه ، مكرراً طلبه فما زاد ذلك السيد عمر الا اصراراً على عناده

فاستدعى محمد علي ، حينذاك ، القاضي وجميع العلماء . ولما استقر بهم المجلس ، بعث طلباً رسمياً الى السيد عمر مكرم بالحضور . واذ قوبل هذا الطلب ايضاً بالرفض ، استفز الباشا عليه نفوس الحاضرين ـ وكان الحسد قد جعلها على استعداد تام لذلك ـ وعزله ، في الحال ، من نقابة الاشراف ، وقلدها الشيخ السادات مكانه . ثم طلب الى الجمعية الحكم بنفي السيد عمر . فاجابت ؛ على ان يمهله ثلاثة ايام

فرضي محمد علي بالمهلة على شرط ان لا تكون اسيوط محل

النفي : لانها مسقط رأس السيد . فعينت له دمياط

ثم استكتب محمد علي الجمعية عرضاً ألصقت فيه بالسيد عمر تهم عديدة تبرر عزله ، وارسل ذلك العرض الى الباب العالي ، لاعلامه بما تم

فكانت نتيجة انقسام المشايخ على انفسهم ، وارتكابهم من الامور ما كانوا يعلمونه مخالفاً لضمائرهم ، أن هيبتهم ضاعت من النفوس ، ومكانتهم فيها تلاشت ؛ وان محمد علي اصبح لا يخافهم ويعتبرهم آلات صماء بين يديه ، كما انه اصبح مطلق اليدين فيما استولى عليه لتعمير خزائنه

وبما ان الشهية للاكل يزيدها الاكل تفتحاً ــ كما يقول الغربيون ــ فان محمد علي بعد ان استولى على اطيان الرزق والاوقاف ، ورأى انها لا تكفي لسد ما يجعله دأبه في التثبت فوق القمة في حاجة اليه من النقود ، فرض ضريبة جسيمة على باقي اطيان القطر . فاثار ذلك ثائرة تململ وتذمر في صدور ملاكها وملتزميها . فامرهم محمد علي بابراز حجج ملكيتهم لتطبيقها على ما يملكون . فابرزوها

وكان هو ، في الاثناء ، قد تخلص من المماليك وأمن الاستانة ، وبعث بالجند الميال الى التمرد الى بلاد الحجاز لقتال الوهابيين فيها ، ولم يبق في مصر الا جنداً وقواداً يثق بولائهم وثوقاً تاماً ؛ وأخرس المشايخ بما سجله عليهم من حطة جعلهم حسدهم

يتدنئون اليها ؛ فلم يعد يخاف ولا يهاب احداً

فضبط تلك الحجج واعدمها . ووضع يده على باقي اطيان القطر مقابل ترتيب ايراد سنوي لاصحابها السابقين يوازي ايرادها السنوي المعتاد اصبح ، هو ، حراً في دفعه انى يشاء ؛ وفي عدم دفعه متى شاء . وهذا كان الغالب . ثم لم يكتف بذلك . بل حكر الزراعة والتجارة . فاصبح مزارع البلاد وتاجرها الوحيد

* * *

وهكذا حقق الحلم الذي رآه في صباه وقصه على الشيخ الوقور من انه رأى نفسه يشرب كل ماء النيل ليروي ظمأ اعتراه . ولا يرتوي !

الفصل الرابع

بعد التثبت فوق القمة

فلما زالت الصعاب من سبيله ، وشعر انه أصبح حراً في حركاته ، وضع نصب عينيه العمل على الاستفادة من كل سانحة لتحسين مركزه وتعزيزه ؛ وانشاء دولة على ضفاف النيل تعيد الى مصر سؤددها ومجدها التالد ، وتجلسها مكرمة في مصاف الامم الحية

وأدرك انه لن ينال الغرض المقصود الا اذا جمع على ولائه عواطف العالم الاسلامي ؛ والا اذا نقل مصر — ولو بعنف — من البيئة التي بنت القرون المنصرمة جدرانها حولها ، الى بيئة جديدة تكون مصطبغة القاعدة والجدران بصبغة المدنية الغربية ، ومتشربة النفس بمبادئها اصطباغاً وتشرباً متفقين مع روح الشرق

* * *

فلجمع ولاء العالم الاسلامي حوله ، هب باخلاص الى قتال الوهابيين

ثم هب باخلاص ، كذلك ، الى نجدة الدولة العثمانية على اخماد ثورة اليونان !

ولنقل مصر الى البيئة المرغوب فيها ، قلب كيانها ، رأساً على

عقب ، وأخرجها بعد عناء شديد الى وجود جديد

***

اما الوهابيون ، فقوم من عرب نجد ؛ قاموا ينشرون تعاليم شيخ عالم يقال له محمد عبد الوهاب ، بقوة الحسام ، وببرهان السطو والغزو

وتعاليم الشيخ محمد عبد الوهاب كانت ترمي الى حركة اصلاحية في الاسلام ، القصد منها اعادة هذا الدين الحنيف الى سلامته الاصلية وتنقيته من كل الشوائب التي أدخلتها بدع القرون الى كيانه المقدس

فلم يكن اذاً من بأس في نشر تلك التعاليم . بل كان في ذلك خير عميم

ولكن القوم الذين قاموا بهذه المهمة لم يكونوا أهلا لها : لانهم اتخذوها حجة ووسيلة للنهب والسلب ، والتعرض للمسلمين في اقامة شعائر دينهم ، ولا سيما في تأدية فريضة الحج

فبعد ان نهبوا « الامام حسين » ـ وهي مدينة واقعة في الصحراء ، غربي الفرات ، في المكان الذي قتل فيه ابن بنت الرسول (صلعم) ، وجردوا مسجدها الحرام من جميع تحفه وكنوزه، استولوا على مكة المكرمة في سنة ١٨٠١ وشرعوا يضايقون الحجاج بفرض ضرائب عليهم ما أنزل الله بها من سلطان ثم لم يلبثوا ان حظروا الحج كلية ، الا على الكيفية التي يريدونها

وفي سنة ١٨٠٥ استولوا على المدينة المنورة ، ونهبوها ؛ وتعرضوا لذات قبر الرسول بسوء . وفي سنة ١٨٠٦ منعوا الحج بتاتاً

* * *

فندب الباب العالي لقتالهم سليمان باشا والي بغداد ؛ فعبد الله باشا والي دمشق ؛ فيوسف باشا ، الصدر الاعظم المهزوم في واقعة عين شمس . ولكن الوهابيين قهروهم جميعاً ، وأرجعوهم على أعقابهم خاسرين

فطلب السلطان ، حينئذ ، الى محمد علي باشا السير الى قتال اولئك العصاة المنشقين

فرأى محمد علي في اجابة الطلب ثلاث فوائد كبرى لنفسه : الاولى : امكان ابعاد جيشه الالباني غير المنظم والكثير التمرد ، بحجة لا سبيل الى الشك في حقيقتها ، فامكان تنظيم الجيش المرغوب فيه ، المدرب على الطريقة الغربية ، اثناء غياب اولئك الالبانيين . الثانية : امكان تحصيل ما في الرغبة من اموال ، والاستيلاء على اكثر ما يمكن من الاملاك بحجة لزوم النقود للانفاق على الحرب المقدسة ، وفي سبيل استرداد الحرمين الشريفين . الثالثة والاهم : جمع عواطف مسلمي الارض قاطبة على حبه وولائه ، بصفته منقذ الحرمين ، ومعيد مناسك الحج .

* * *

فاقدم على تجهيز مهمات حملة هائلة ، منذ اواخر سنة ١٨٠٩ .
واظهر ، في ذلك ، لاول مرة ، مقدار تأثير قوة ارادته وثبات عزمه على ماجريات الامور . فانه ، لوعورة الطريق البرية بين مصر والبلاد العربية ، صمم على نقل جيوشه الى ميدان القتال عن طريق البحر

ولكنه لم يكن لديه مركب واحد في موانىء البحر الاحمر كلها ؛ فعزم على انشاء عمارة بحرية في السويس ، تنفعه لتلك الحملة وللمستقبل

وبالرغم من ان كل الادوات اللازمة كانت تعوزه ، وانه كان مضطراً الى احضارها من الخارج ، فان عزمه لم يخر ، وارادته لم تضعف ؛ بل ارسل واشترى من موانىء تركيا كل ما كان في احتياج اليه . وانشأ في بولاق ترسانة جمع فيها كل من تسنى له جمعهم من الصناع ذوي الخبرة بعمل المراكب . واقبل ينفذ تصميمه

فصاروا كلما عملت قطعة ، يضعون عليها رقماً خاصاً بها ، ويرسلونها الى السويس ، على ظهر الجمال ، حتى بلغ عدد ما استعمل من هذه الحيوانات في ذلك اكثر من ثمانية عشر الفاً

فكان لا بد للنجاح من ان يكلل هذه الجهود العظيمة : فلم تمض عشرة شهور الا ومدت في خليج السويس ثمانية عشر مركباً تتهادى بخيلاء فوق الامواج ، وقد بنيت بحيث تسع اكثر ما يمكن من الجنود والمؤن والذخائر

فنزل جيش الحملة فيها يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨١١ . فاقلعت الى ينبع . وما استولى عليها ، الا وقامت الحرب بينه وبين الوهابيين سجالا : تارة يفوز طوسن فيها ، وطوراً يقهر ، وابوه ينجده ، ويمده ، حتى تمكن من انقاذ المدينة المنورة اولا ، فمكة المكرمة فيما بعد

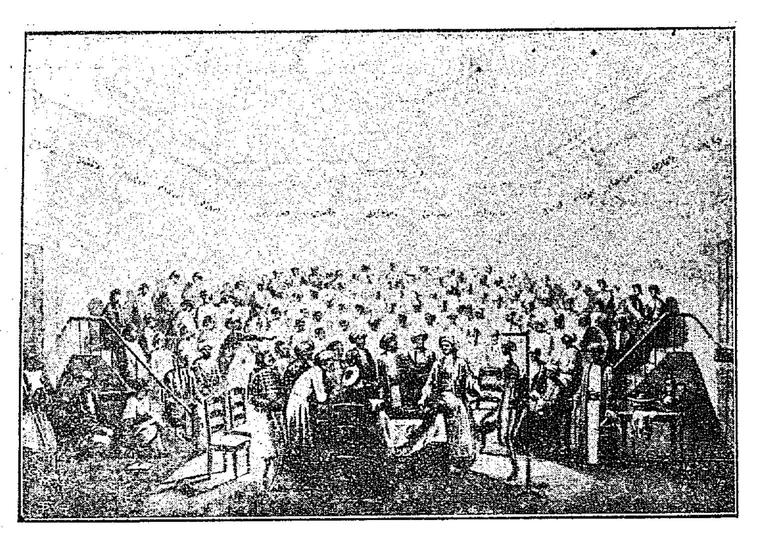
ولكن الدائرة عادت فدارت عليه . فاسرع محمد علي الى نجدته بنفسه . وبعد ادى فريضة الحج ، اقام يحارب في البلاد العربية ما يزيد على ثلاث سنوات ، اظهر ، في خلالها ، من الثبات على المكاره ، ومن شدة المراس ، وقوة العزم والحزم وتفتق الذهن ما لا نظير له الا في أخلاق اعظم رجال التاريخ

فحق للاقدار ان تساعده ، ولملاك الموت ان يؤازره على اعدائه ، كسابقة عهده . فمر بسعود امير الوهابيين الهمام ، في درية - عاصمة ملكه - في ١٧ ابريل سنة ١٨١٤ ، واغتاله . فبات امر المنشقين في يد عبد الله ابنه . ولم يكن على شيء من فضائل أبيه وميزاته

غير ان حادثة لطيف باشا ما لبثت ان استدعت محمد علي الى مصر على جناح السرعة . فثار طوسن على القتال . ولكن عبد الله ، أمير الوهابيين ، لم يكن راغباً الا في الراحة واللذات . فأرسل الى طوسن من فاوضه في الصلح . فقرر طوسن شروطه على ما شاء ؛ وكانت شديدة ، صارمة . فقبلها عبد الله وامتثل . فعاد طوسن الى مصر ، ووصلها في ٧ نوفمبر سنة ١٨١٦



الارسالية الطبية الاولى



صف التشريح بمدرسة الطب

ولكن محمد علي أبى المصادقة على تلك الشروط ، الا اذا رد الوهابيون ما سلبوه من مكة والمدينة . فأجاب عبـد الله بانه لم يعد لديه شيء من ذلك . فلم يصدقه محمد علي ، ـ لغرض في نفس يعقوب ـ وجرد عليه حملة جديدة ، تحت قيادة ابراهيم باشا ابنه

فباشر ابراهيم الحرب بعنف ، وبينما أخوه طوسن تقتله في بونيال حمى طاعونية اعترته عقب ليلة قضاها بين ذراعي جارية وهبت له حديثاً ، فمات عن ابنه عباس الاول وهـذا لا يزال في الثالثة أو الرابعة من عمره ، ما فتىء ابراهيم يتقدم من فوز الى فوز، ومن نصر الى نصر حتى استولى على درية ، عاصمة الوهابيين بعد حصار دام سبعة شهور . فدمرها تدميراً ، وأرسل عبدالله بن سعود الى مصر ، أسيراً . فسلمه محمـد علي الى نفر من التتر أتوا من الإستانة لاستلامه . فعادوا به اليها ، وهناك ، بعد ان داروا به الشوارع ثلاثة أيام ، ليهزأ به الملأ ويهينوه ، قطعوا رأسه ؛ ثم حشوه تبناً ، وابقوه معلقاً على سور الباب العالي مدة ، يتفرج عليه المارون ويشتمونه

***

واما الثورة اليونانية ، فانها بدأت بتحريض من علي باشا تبلن والي ياتينا ، يوم ٧ ابريل سنة ١٨٢١ ـ وهو اليوم الذي يحتفل القوم فيه ، الآن ، بعيد استقلالهم ! ـ وانتشرت بسرعة انتشار

الحريق ، لا سيا بعد ان أمر السلطان محمود الثاني بشنق البطرك المسكوني ، في الاستانة العلية ، بملابسه الحبرية ، يوم عيد الفصح الارثوذكسي بالذات . فأعلنت المورة استقلالها في أول يناير سنة ١٨٢٢ . وقامت العصابات اليونانية في كل جهة تقاتل القوات العثمانية قتال المستبسل في البر والبحر

فبادت في ذلك ثلاثة جيوش وثلاث عمارات . وما لبث السلطان محمود ان فهم ان اخماد نيران تلك الثورة الهائلة فوق طاقة قواده وجنوده غير المنظمة . فاستنجد محمد علي ، ولكن استنجاداً جزئياً ؛ وطلب اليه العمل فقط على اخماد الفتنة القائمة في جزيرة كريت . ولهذا الغرض ولاه الادارة العسكرية في تلك الجزيرة

غير انه ، لما دخل جيش عثماني ، مؤلف من مائة الف مقاتل شبه جزيرة المورة في ربيع سنة ١٨٢٤ ، لاخضاعها ، وما عتم ان هلك فيها ، كبح محمود جماح كبريائه الهمايونية ، واستنجد محمد علي استنجاداً كلياً . فلبى محمد علي دعوته ، على شرط ان تكون له ادارة الاقاليم التي يخضعها حسام جيوشه لسلطة الباب العالي

***

وفي ١٠ يوليه سنة ١٨٢٤ أقلع ابراهيم باشا ابنه — قاهر الوهابيين — على رأس جيش مصري بحت مدرب على النظام الجديد ، يربو عدده على ثمانية عشر الف مقاتل ، تقله عمارة مصرية

بحتة ، مؤلفة من ٧٣ مركباً حربياً ، وسبعون سفينة شراعية أجنبية . ونزل في ثغر موررون في ١٦ فبراير سنة ١٨٢٥ . فاستولى ، في مدة وجيزة ، على جميع الساحل . وما أتى آخر سنة ١٨٢٥ الا وكل مدن المورة قد وقعت في قبضة يده ، ما عدا نوبليا

وكان الجيش التركي ، من جهته ، تحت قيادة رشيد باشا ، يحاصر مدينة ميسولونجي ، ولا يستطيع الاستيلاء عليها . نهاج ذلك غضب السلطان محمود . فأرسل الى رشيد باشا رسولا يقول له : « ميسولونجي أو رأسك ! » نهجم رشيد باشا على اسوار المدينة ، مرتين ، ورد عنها ، مرتين ، بخسائر فادحة

نتوسل الى ابراهيم باشا ، بان يتفضل وينجده . فسار ابراهيم اليه بعشرة آلاف رجل من المشاة ، وخمسائة فارس ، واستلم زمام الامرة العامة ، وشدد في الحصار تشديداً سد على أهل ميسولونجي جميع المنافذ والمسالك . واضطرهم الى الهلاك جوعاً . فأشعلوا النيران تحت اسوار مدينتهم وتحت بيوتها ، ونسفوا نفوسهم معها . فما استولى الجيشان المصري والعثماني ، الا على خرائب واطلال

وعاد ابراهيم من هناك الى المورة : فجعلها قاعاً بلقعاً ، وسبى كثيراً من أهلها ، لا سيما النساء والاطفال ، وأرسلهم الى مصر ، حيث ملأت الرقيقات الروميات دور الحريم ، وملأ الغلمان الاروام عرصات القصور . وكان ذلك من حسن حظهم !

لان كثيرين من باشاواتنا ، اليوم — وليس من أقلهم شأناً ،

ولا أحطهم قدراً ـ ما هم الا سلالة اولئك الغلمان الاروام ، بعد ان اعتنقوا الاسلام ، وتعلموا تعاليمه وتشربوا بمبادئه

فأثارت أعمال ابراهيم عواطف محبي اليونانية من أهل الادب والعلم في اوربا : لانهم كانوا يعتقدون ـ وهم ، بالاسف ! لا يزالون يعتقدون ، حتى يومنا هذا ، وفي مقدمتهم المستر لويد جورج ، كبير وزراء بريطانيا العظمى السابق ـ ان يونان اليوم هم أولاد هوميرس وازيودس وبندارس ، وصولون وليكرجس وپريكلس ، وهيرودتس ، وملسياد وتمستكل واشيل وسوفوكليس واوريبيد وتوسيديد وكزينوفون وسقراط وافلاطون وارسطاطاليس ، وديموستين ، وابل ، وفيدياس وارستوفان وهبوقراط واقليديس وغيرهم من منشئي المدنية اليونانية القديمة ، احدى والدتي المدنية الغربية الحديثة ، وأبهر الاثنين جمالا وجلالا . فما فتئوا ولما يفتأوا يعطفون عليهم . مع ان نسبة يونان اليوم الى أولئك الافاضل الاعاظم كنسبة اغريق الامبراطورية البيزنطية الى رومان عصر هنيبال ، أو كنسبة الاجلاف الضاربين في شبه جزيرة سيناء اليوم ، الى القبائل العربية الشهمة التي مزقت مملكة الاكاسرة وامبراطورية القياصرة ، تحت قيادة خالد بن الوليد والمثنى ، وأبي عبيدة الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمرو بن العاص

فتحالفت انجلترا وفرنسا وروسيا على وضع حد للحرب القائمة بين الدولة العثمانية واليونان ؛ وأتت أساطيلها ورست في مياه نافارين

بجانب العمارة العثمانية المصرية . فصدم قارب بريطاني حراقة تركية اما عمداً واما صدفة . فأمر القارب الحراقة بالابتعاد . فأبت . فحاول من في القارب الوثوب الى سطحها . فأطلقت الحراقة عليهم رصاصة فما كان من الفرقاطة الانجليزية التابع القارب لها الا انها أمطرت الحراقة صيباً من الرصاص

فلما رأت سفينة حربية تركية ذلك ، أطلقت مدفعاً . فأصاب السيرين Syrène ، مركب أمير البحر الفرنساوي ، فأجابت السيرين باطلاق جميع مدافع أحد جنبيها . فدارت رحى القتال عامة ، وأسفرت ، بعد أربع ساعات عن تدمير العمارتين العثمانية والمصرية

وكان ذلك ، بدون سابقة اعلان حرب ، وبينما كانت العلاقات سلمية بين تلك الدول الثلاث وتركيا ومصر

ويروى عن محمد علي انه لما بلغه النبأ المزعج ، نبأ تحطيم عمارته ، قال بشخوص نظر ملئه الاسف العميق : « اني لا أدري كيف صوب الفرنساويون مدافعهم على سفنهم ! » ايماء الى ما كان يربط امارة مصر بفرنسا من روابط الوداد المتين ، والى ان المصالح الفرنساوية والمصالح المصرية ، في البحر الابيض المتوسط كانت واحدة !

***

فقضى دمار العمارة المصرية على ابراهيم باشا بانقطاع كل مدد عنه ، حتى امداد الطعام والمؤن . وفي ٣٠ اغسطس سنة ١٨٢٨

نزل جيش فرنساوي مؤلف مما يزيد على ١٥ الف مقاتل ، تحت قيادة الجنرال ميزون الى خليج كورون ، لمساعدة اليونان . فرأى محمد علي نفسه مضطراً الى استدعاء ابنه

فعقد مع الاميرال كودرنجتن ، أمير القوات البحرية الانجليزية ، اتفاقاً قضى بجلاء الجنود المصرية عن المورة ورجوعهم الى مصر !

نعادوا اليها في شهر اكتوبر التالي ، ورايآتهم لم ينكسها عار انكسار !

هذا ما كان من جمع محمد علي عواطف العالم الاسلامي على ولائه

* * *

اما ما كان من نقله مصر الى بيئة غير البيئة التي وجدها فيها ، فقد عمل ذلك

اولاً : بان أقلع عن طريقة الحكم التي سبقت عهده ، واقتدى بما وضعه الغربيون لا سيا نابوليون الاول ، من نظامات حكم وادارة . فاحتاط بديوان مؤلف من نخبة الرجال المحنكين ـ دعاه الديوان الخديوي ـ وانشأ وزارتين : احداهما للحربية ـ وكانت الأولى من نوعها ، لانصراف افكاره في البدء الى الحروب فالفتوح ـ ؛ والاخرى للداخلية لتدير شئون البلاد بينما يكون ، هو ، مشتغلا في شئون السياسة الخارجية وتنظيم البلاد المفتوحة .

وتسهيلا للعمل على الوزارتين قسم البلاد المصرية الى ٦٤ قسما .
وجعل على كل قسم رئيساً دعاه ناظر القسم ؛ وكوّن من تلك الاقسام
مجموعات دعاها مراكز ، عين على كل منها رئيساً سماه المأمور .
ثم كون من تلك المراكز مجموعات أخرى دعاها مديريات ، عين
على كل منها رئيساً سماه المدير . وكان كل قسم من تلك الاقسام
الاربعة والستين يشمل عدة نواحي ونجوع وكفور ، يدير شئون
كل منها شيخ او عدة شيوخ يقال لهم مشايخ البلدان جعلهم محمد
علي المسئولين عن التجنيد وعن جباية الاموال

ثانياً : بان انشأ من ابناء البلد جيشاً زاهراً مدرّباً على الطريقة
الغربية ، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لتفلّ الحديد
وتدك الجبل ! وللجندية ، في الشكل الذي انشأ محمد علي جيشه
عليه ، مزايا ومنافع مادية وادبية لا سيما في قطر كقطرنا تتعدد فيه
الاجناس والملل والنحل ، ما لا يمكن ان تغيب عن احد . منها : ازالة
الفوارق بين هذه الاجناس والملل والنحل ، وايجاد رباط اخوة
في الراية والشرف بين افرادها . ومنها تقوية الاجسام بالتمارين
الرياضية ؛ وعلى الاخص تقوية الارواح وتغذيتها بالبان فضائل
فردية ، كالهمة ، والنشاط ، والترتيب ؛ واجتماعية ، كتضحية
الانانية ، والمروءة ، واحترام القوانين ، والولاء للوطن وحبه .
وهذه المزايا والمنافع كانت امتنا في اشد الاحتياج اليها ، بعد ان
مضى عليها ما يزيد على أربعة وعشرين قرناً وهي تعبير اتنوجرافي

فقط وهي مدوسة تحت اقدام الفاتحين !

وانشأ ، بجانب هذا الجيش ، عمارة فخمة جولت الراية المصرية مهابة ، معظمة في مياه البحر الابيض المتوسط ومياه البحر الاحمر . وانشأها من العدم وبالرغم من عدم وجود مادة واحدة لديه من المواد اللازمة لبنائها . ثم اذ دمرتها دونمات الدول الثلاث المتحالفة في مياه نافارين ، عاد فابتنى غيرها في ظرف وجيز وسلحها بما يزيد على الف وخمسمائة مدفع . فدفع بها عن شواطىء ديارنا الاخطار والخطوب . ولم يكن يمكن ولا للوك الجن ، في بلد كانت تعوزه كل الوسائل ، وكانت كل الآراء فيه معارضة ، ان تنجز ما انجزه محمد علي في هذا الباب الهام

ثالثاً : بان جدد بجدة المعارف بتغييره برامج التعليم وطرقه ؛ وفتح ميداناً جديداً للعلم ادخل الامة فيه قسراً . فقد كان التعليم ، حتى قيام دولته ، قاصراً على تلقين اصول الدين واصول اللغة العربية . ولم يكن في البلاد سوى كتاتيب يعلم فيها القرآن الشريف ـ لا كينبوع علوم دينية ، محيية ان لم يكن لشيء ، فللاخلاق الحميدة ـ بل كمادة تحفظ على ظهر القلب بدون ان يفقه حافظها معناها ؛ وسوى الجامع الازهر ـ وقلما أخرج عالماً واحداً يشار اليه بالبنان ، بعد القرن العاشر للهجرة

ففتح محمد علي المدارس تترى : ابتدائيـة وثانوية وعالية ، اذكر لكم بعضها ليكون عندكم فكرة منها كلها

فالمدارس الابتدائيـة كانت سبعاً واربعون ، منها : مدارس المحلة الكبرى وزفتى والمنصورة والزقازيق والجيزه وبني سويف والفيوم والمنيا واسيوط وسوهاج واسنا الخ

والمدارس الثانوية والعالية والخصوصية كانت اربعاً وعشرين ، منها : مدرسة قصر العيني ، ومدرسـة اللغات ، والمدرسة البوليتكنيكية ، ومدرسة المعادن ، ومدرسة الطب البيطري ، ومدرسة الطب والتوليد . ومدرسـة العمليات (اي الفنون والصنائع) ومدرسة الموسيقى الخ

وادخل في هذه المدارس التلامذة والطلبة رغم انوفهم وانوف اهلهم . واحضر اليها الاساتذة الاكفاء من بلاد الغرب ؛ وعلم فيها العلوم الوضعية ، التي كانت ولا تزال سبباً كبيراً من اسباب رقي الغرب وتقدمه . وانشأ بعضاً من تلك المدارس ـ كمدرسة التشريح ، مثلا ـ رغم كل معارضة وكل مقاومة ، حتى من لدن رجال الدين . ولم يكتف بذلك . بل أرسل البعثات تلو البعثات الى المعاهد الاوربية ، لا لكي يقتبس المبعوث بهم علوم الامم الغربية وفنونها وصنائعها فحسب ، بل ليتخرجوا اساتذة فيها ؛ فيعلموها مواطنيهم بعد عودتهم الى البلاد

واضاف الى تجديد بجدة المدارس ، اقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها ، ليتمكن قطرنا من ترويج المصنوعات على الطراز الغربي ، لاعتقاد محمد علي ان تغيير معالم البيئة المادية

يساعد كثيراً على تغيير معالمها المعنوية . ولتتمكن البلاد من الاستغناء جل الاستطاعة عن الواردات الاجنبية

رابعاً : بان غطى وجه القطر بالاشغال والاعمال المفيدة ، وسخر فيها الايدي تسخيراً . ولولا ذلك ، لما اشتغلت ولما تمت تلك الاعمال . فمن سد ابي قير ــ وكان الانجليز قد كسروه في حربهم مع الفرنساويين ، فأغرقوا جزءا عظيما من مديرية البحيرة ، ودمروا القرى والبلدان جنوبي بحيرة مريوط حتى حوش عيسى ؛ الى سد الترعة الفرعونية ــ وكانت تحول جانباً عظيما من مياه فرع دمياط الى فرع رشيد ، فتسبب ، لا سيما في ايام التحاريق ، شرقاً عظيما لمزروعات شمالي الدلتا والدقهلية ؛ الى سد فتحة ديبى ببحيرة المنزلة ، لمنع مياه النيل من الانصراف بسرعة الى البحر الملح ، ومنع مياه البحر الملح ــ في ايام التحاريق ــ من الدخول بغزارة في تلك البحيرة ، مسوقة اليها من الرياح الهابة من جهة اليم ؛ الى تقوية جسر قشيش ــ وهو الذي كان يصون مديرية الجيزة من الغرق ؛ الى بناء جسر لسد قطع في البحر اليوسفي غربي ناحية (هوارة المقطع) في جهة (طميه) ؛ الى تعزيز قنطرة اللاهون ؛ الى حفر الترع العديدة واهمها المحمودية والخطاطبة ، ومسد الخضراء ، والنعناعية ، والسرساوية ، والباجورية ، والبوهية ، والمنصورية ، والشرقاوية ، الى اقامة قناطر حاجزة عليها ومسهلة للري ؛ الى بناء الترسانة وحوض تصليح السفن ، وتشييد قناطر بحر شبين

بالقرنيين ، والقناطر الخيرية الكبرى ـ وهي معجزة اعماله المعجزة ؛ الى ابتناء الحصون والقلاع على السواحل المصرية لارد هجمات الاعداء عليها ؛ وابتناء السرايات العديدة ، واهمها سراي رأس التين ، وسراي شبرا ، وسراي قصر النيل ؛ الى الشروع في تحويل الازبكية الى منتزه عمومي ؛ الى انشاء شارع ما بين باب رشيد بالاسكندرية وسراي رأس التين ، وكسائه بمسحوق من الجير والبتسولانة الصناعية لجمع الحجارة بعضها الى بعض ، الى غير ذلك من الاعمال العظيمة التي غيرت وجه القطر تغييراً محسوساً

خامساً : بأن هدم الحواجز التي كانت العصور السالفة قد اقامتها بين تعامل الغرب والشرق ؛ ومكن العالمين من الاختلاط معاً ، لا بالاتجار الواسع فحسب . بل بالاحتكاك اليومي في العادات والاخلاق والعقلية . فحبب الى الغربيين المجيء الى القطر ، والاقامة بل والتوطن فيه ، واستغلال رؤوس اموالهم في ارضه ؛ وانشاء مدارس لاولادهم على سطحه ؛ وفتح امام قومه ابواب السفر الى الغرب ، والتعرف بحاله والاقتباس عنه . وكان اجدادنا في ذلك العصر يكادون لا يعلمون عن الغرب اكثر مما كان يعلم الاوربيون عن اميركا حتى اواسط القرن السابع عشر . وليس من يجهل انه لولا اختلاط العالمين معاً ، لما تخلصنا من افكار كثيرة كانت من اكبر اسباب قعودنا عن جري شوطنا في الميدان الذي تتسابق فيه الامم المتمدينة نحو الرقي المادي والادبي . ولو تسنى لعصر الرشيد

والمأمون ما تسنى لمصر وسوريا بعمل محمد علي ، من توسع دائرة هذا الاختلاط وتشعب اسباب الاحتكاك بين العالمين واقتباس المدنية الاسلامية عن المدنية اليونانية ما اقتبسته النهضة العلمية العلوية في القطرين عن المدنية الغربية ، لما دالت للخلانة العباسية دولة ولما غربت للمدنية الاسلامية شمس

سادساً : بان سن قانوناً للبلد كل مواده متشربة بالرغبة في فتح عصر جديد للامة ؛ عصر تكون المساواة تامة فيه بين الافراد ، ويكون الفرد آمناً على حريته الشخصية من كل عبث ما دام لا يرتكب جرماً ، ولا يأتي امراً تؤاخذ عليه الشرائع . ولئن لم ينفذ ذلك القانون في ايامه تنفيذاً مرضياً ، واستمر الاقوياء يعبثون بالضعفاء ؛ لئن اقدم مختار بك ، اول ناظر للمعارف العمومية المصرية على قتل غلام له تحت العصا ، لانه أبى ان يفرط له في عرضه ؛ واقدم سليم باشا ، للسبب عينه ؛ او لسبب يماثله في سماجته وقبحه على القاء احد مماليكه في النيل ؛ واقدم محو باشا على قتل احد اتباعه تحت العصا ، ايضاً ، لهفوة ارتكبها ، ولم يعاقب احد منهم باكثر من الحكم عليه بدفع دية ضئيلة — فانه لا يجب ان يغيب عن الاذهان ما في قول مونتسكييه من حقيقة عميقة : « ان الناس ينشئون ، في الاول ، النظامات ، ثم لا تلبث النظامات ان تنشيء الناس ! »

سابعاً : بان فتح اذهان المصريين الى امرين ، لم يكونوا ليفكروا فيهما البتة ، لولاه . الاول : ان مصر والسودان قطران توأمان ،

ابوهما النيل : فاما ان يدوما ملتصقين كما ولدا ؛ واما ان يكونا متخالفين ابداً . والاّ فالقوي منهما ان يجبر الثاني على احدى هاتين الحلتين ، كما أجبرت ولايات الشمال الاميريكية ولايات الجنوب على البقاء متحدة معها ، بحرب الانفصال بين سنة ١٨٦١ و سنة ١٨٦٥ .
والثاني ان لمصر قومية شخصية منفصلة تمام الانفصال عن قوميات الشعوب الاخرى القاطنة في الاقاليم المتكونة منها القومية العثمانية في ذلك العصر . وانما فتح اذهان المصريين الى هذين الامرين بالحربين اللتين قام بهما في مجاهل السودان ، وفي سوريا والاناضول

* * *

اما حرب السودان ، فان الباشا العظيم صمم عليها أولا ليقضي على الباقية الباقية من المماليك – وكانوا مقيمين في جهة دنقلا ؛ ثانياً ليتخلص مما تبقى من فيالق الجيش غير النظامي التي لم تهلك في حرب الوهابيين ، وعادت الى مصر ؛ ثالثاً لاعتقاده بوجود مناجم ذهب وماس في السودان ، ولا سيما في سنار ؛ رابعاً وأخيراً لان فتح السودان كان من شأنه ان يضع بين يديه أمماً وشعوباً عديدة وقوية ، يستخدمها اما في تعمير الجهات المصرية التي قللت الكوارث عدد السكان فيها ؛ واما في تكوين صفوف الجيش النظامي المرغوب في انشائه

فسير جنوده تحت قيادة اسماعيل باشا ثالث أولاده ؛ فدوخت الاقطار الجنوبية تدويخاً . ولم تلاق لصد غزواتها قوة في استطاعتها

الثبات أمام مدافعها . فاستولى اسماعيل باشا على السنار ، وبلغ الحه فازوغلو . ولما لم يجد فيها ذهباً ولا ماساً ، ورأى ان أحمد بك الدفتردار ، صهره ، وافاه بمدد ، ترك له جيشه ونزل الى شندي ، وقال للملك نمر مليكها : « اني اريد ان تملأ مركبي هذه ، ذهباً ، وتقدم لي ألفي رجل لجيشي في ظرف خمسة ايام ! » نطلب نمر مد المهلة . فزجره اسماعيل ، وضربه بشبكه ، وهدده بالخازوق ، اذا تأخر عن القيام بما أمره به . فما كان من الملك النوبي الا انه دبر مكيدة لاسماعيل . فأغراه بسكنى بيت في شندي ، وكدس حول ذلك البيت اكواماً من الحطب والقش بحجة الرغبة في اطعام خيل الباشا . ثم ابدى الى قومه علامة : فوثبوا على حرس اسماعيل وادخلوهم البيت عنوة ، واشعلوا النار في الوقود المكدس حولها . فحاول اسماعيل ومن معه من رجاله ان يفتحوا لانفسهم ممراً في وسط الاتون المتقد حولهم . ولكن حراب نوبيي الملك نمر ما فتئت تدفعهم في وسط النيران حتى احترقوا وماتوا عن آخرهم

فلما نمى خبر ذلك الى الدفتردار ، اقسم بقتل عشرين الفه شخص ، ثأراً لموت نسيبه . وزحف في الحال بجنده الى شندي . فلم يبق ولم يذر . وزاد عدد من قتل على عدد من اقسم بقتلهم

ولما تم الفتح ، واستتب الامر ، عين محمد علي ضابطاً كبيراً يقال له رستم بك ،مديراً عاماً على السودان وارسله على رأس جنود نظاميين ليحل محل الدفتردار . واستمر السودان تابعاً لمصر منذ

ذلك الحين الى ان فصلته عنه ثورة محمد احمد المهدي

* * *

وأما الحرب في سوريا والاناضول ، فسببها ان عبد الله باشا ، والي عكاء ، كان يحبب الى فلاحي مصر المهاجرة من القطر الى البلاد الخاضعة لحكمه . ولما آخذه محمد علي على ذلك ، اجابه ان المصريين رعايا الباب العالي ، لا عبيد محمد علي . فلما أعيت هذا المطالبة الودية ، عزم على تفهيم عبد الله باشا ان المصريين مصريون قبل كل شيء ، وان بلادهم احق بجهودهم من كل بلد آخر . فأرسل الى عبد الله باشا كتاباً قال له فيه : اني سأقدم لاستعيد الثمانية عشر الف مصري الذين اغريتهم فحملتهم على الذهاب اليك . وسأعود بهم وبواحد فوقهم الى مصر ! » وعنى محمد علي بذلك الواحد عبد الله باشا نفسه

وفي الحال سير ابراهيم ابنه الى فلسطين على رأس جيش مؤلف من ٢٤ الف مقاتل ، ومعه ثمانون مدفعاً ، وعلى رأس عمارته الزاهرة التي اقلته — هو واركان حربه — الى يافا

فاستولى ابراهيم على جميع مدن الساحل الفلسطيني ، واتى وحاصر عكاء . فهب والي حلب الى انجادها ، على رأس اربعة الاف مقاتل . نترك ابراهيم باشا معظم جيشه امام اسوار المدينة المحاصرة ، وذهب بزهرة جنوده لمقاتلة ذلك الباشا — وكان قد انضم اليه واليان عثمانيان آخران . فبدد جموعهم في معركة دموية . وعاد الى تشديد

الحصار على عكاء براً وبحراً . وبعد ان قضى امامها ستة شهور في قتال كاد يكون مستمراً ، استولى عليها عنوة في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ ، وأرسل عبد الله باشا واليها اسيراً الى أبيه في الاسكندرية فكان ذلك فاتحة الحرب بين مصر والدولة العثمانية

فسار ابراهيم باشا لمقابلة الجيوش المتقدمة لقتاله . فأرسل فرقة للاستيلاء على طرابلس الشام ، وزحف ببقية جيشه الى دمشق . فدخلها فائزاً . وسار منها الى حمص ، حيث كان في انتظاره جيش عثماني مؤلف من خمسة وثلاثين الف مقاتل

فدار القتال بينهما ، واسفر عن انهزام العثمانيين ، تاركين الفي قتيل في ساحة الوغى وثلاثة آلاف اسير ، وعدة مدافع . ولم يخسر المصريون سوى مائتي قتيل ومائتي جريح . فطارد ابراهيم الجيش المهزوم الى حلب ، وطرده منها ، واستولى عليها . ولكنه لم يستقر فيها الا برهة ثم قام يتعقب اثر الفارين : وكانوا قد تحصنوا في موقع منيع في بيلان . فوثب ابراهيم بجيشه عليهم وثوباً برؤوس الحراب . فانهزموا ، مرة أخرى ، تاركين الفي اسير وخمسة وعشرين مدفعاً بين يديه . وما كان من الضباط والعساكر العثمانيين الا انهم أخذوا يهجرون راياتهم ، وينضمون الى صفوف الجيش المصري المظفر

فتقدم ابراهيم ، واستولى على أطنه وطرسوس وعلى مضايق جبال الطورس وممراتها . ولكن السلطان محموداً جهز جيشاً عظيماً عززه بمدفعية هائلة ، وسلم قيادته الى رشيد باشا ، الصدر الاعظم ،

وسيره الى قتال المصريين . فقام ابراهيم وزحف الى قونيه ، وما بلغ سهول الاناضول الا وفتحت أزمير ومدن أخرى عديدة أبوابها له . فوجد في قونية كمية عظيمة من المدافع والمؤن ، تركها العثمانيون الفارون منها . ووافاه اليها الجيش التركي ، وعدده ستون الف مقاتل ، يوم ٢٤ دسمبر سنة ١٨٣٢ . واصطف أمامه تاركا فراغاً كبيراً بين فرسانه وشمال مشاته . فما رأى ابراهيم باشا ترتيبه الا واندفع بسرعة في ذلك الفراغ . فقلب كردوس الفرسان ، وأسر الصدر الاعظم ، وألقى الخبل في صفوف المشاة . فتوقفت عن المقاومة . وانسحبت من ميدان القتال بمنتهى الصعوبة . فباتت طريق الاستانة مفتوحة أمام المصريين الفائزين . ولو سار ابراهيم اليها من غد لتغيرت مجاري التاريخ !

ولكنه لم يسر الا بعد شهر ، وكان السلطان قد استنجد للدفاع عنه قوة روسية وعقد مع نقولا الاول القيصر الروسي معاهدة أنكيار سكيلاسي . فاضطربت اوربا لذلك وتداخلت في الامر ، وأجبرت المتحاربين على عقد معاهدة قوتاهيه

فآلت سوريا بمقتضاها الى محمد علي . ومقاطعة أضنا فوقها

ولكن السلطان محموداً لم يكن ليستطيع صبراً على هذا الذل . فما فتىء يدس الدسائس في سوريا فيثير شعبها على الجيش المصري والادارة المصرية ، ولم يفتر ، لحظة ، عن اعادة النظام الى جيشه

وتعزيزه ؛ حتى اذا أحس بانه أصبح كفوءاً للقتال ، حشد منه ٢٣ الف راجل و١٤ الف فارس ، وعززهم بمائة وأربعين مدفعاً . وسيرهم الى آسيا الصغرى ، تحت قيادة حافظ باشا الساري عسكر

فنهض ابراهيم في الحال ، وتقدم لقتالهم على رأس ٤٣ الف مصري . وتقابل الجيشان في نزيب

فلما كان صباح يوم ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ ، علم الساري عسكر العثماني ان عدة آلايات سورية تستعد للتخلي عن الجيش المصري والانضمام الى الاتراك . فعزم على تسهيل الامر لها بمهاجمة المعسكر المصري بغتة ، وأخذ يطلق قنابله عليه . فأجاب ابراهيم بالمثل ، وأصبح القتال عاماً ؛ وانجلى — هذه المرة أيضاً — عن فوز المصريين ، بالرغم من وجود فون مولتكي الالماني مع أركان حرب الجيش العثماني ، يدبر آراءهم ويرشدها . وفون مولتكي — كما لا يخفى — هو الذي قهر فرنسا في الحرب السبعينية ، ذلك القهر الفظيع المشهور . فترك حافظ باشا في ساحة الوغى أربعة آلاف قتيل والفي جريح وأربعة آلاف خيمة والفاً وخمسمائة أسير

ومن غرائب هذه الواقعة ان الذخيرة في أشد اشتداد المعمعة أعوزت المدفعية المصرية : فأرادت الالايات السورية الخامرة اغتنامها فرصة لتمر بما معها من أسلحة الى صفوف العثمانيين . ولكن ابراهيم باشا وهيأة أركان حربه بأجمعها اندفعوا الى مقدمة الصفوف المقاتلة شاهرين سيوفهم وعيونهم تقدح ناراً وهددوا بالقتل كل من

يتزحزح من مكانه . فخاف المخامرون ولم يتحركوا

ولحظ فون مولتكي توقف المدفعيـة المصرية عن الضرب . فأشار على حافظ باشا بان يحمل ، في الحال ، حملة عنيفة برؤوس الحراب على الجيش المصري الذي أقلقه ذلك التوقف . ولو عمل حافظ باشا بالنصيحة ، ربما أمال النصر الى جانبه . ولـكنه لم يفعل . وما لبثت الذخيرة ان أتت المدفعية المصرية . فعادت الى اطلاق النيران أشد مما كانت . وما لم يعمله حافظ باشا ، عمله ابراهيم . فانه حالما وقع نظره على أول اضـطراب أحدثته مدفعيته في صفوف الاتراك وثب عليهم بجيشه الباسل شاهراً حرابه . فبددهم شذر مذر

ولما بلغ نبأ هذه الـكسرة السلطان محموداً ، قال : « اذا كان محمـد علي الرجل الحاذق الذي أنا اعرفه ، فانه سيقدم الى دار السعادة ، ويقبل يدي . فأعينه صـدراً أعظم ، وأعين ابراهيم ابنه ساري عسكر السلطنة : فينهضان بها كما نهضا بمصر ! »

فنقل كلامه هذا الى الصدارة العظمى ـ وكان القائم على مهامها خسرو باشا ، عدو محمد علي اللدود القديم والسبب الاصلي في هذه الحروب التي دارت رحاها بين مصر والدولة العلية ـ فلم تمض ستة أيام الا والسلطان محمود في عداد الاموات . وكان احمد فوزي باشا ، أمير العمارة العثمانية ، يرى رأي السلطان محمود ، ويعتبر ان محمد علي ، وحده ، قادر على انقاذ الدولة من الخراب المحيط بها .

فسار بعمارته وسلمها اليه ، يوم ١٤ يوليه سنة ١٨٣٩

ولكن انجلترا ـ أيضاً ـ لسوء الحظ ، رأت رأيه . فأبت ان تقوم على ضفاف النيل ، دولة مصرية قوية تجعل طريقها الى الهند غير أمين . فألّبت على محمد علي روسيا وبروسيا والنمسا ؛ وأبرمت معها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ التي اتفقت تلك الدول فيها على وقف محمد علي عند حده ، وعلى عدم السماح له بان يكون الا تابعاً لسلطان تركيا . اما فرنسا فانها لم تشترك في تلك المعاهدة ، وعضدت الباشا العظيم جهاراً

وبعد عقد تلك المحالفة ، تقدمت الدول المتحالفة الى محمد علي بان يتخلى عن الاناضول وسوريا ، ويكتفي بولايتي عكاء ، ومصر . فرفض

فاشتغلت النقود في الخفاء ، وبثت الدسائس . فثار دروز لبنان على ابراهيم ، واستولى الانجليز على صيدا ، فعلى بيروت ، فعلى عكاء ، أيضاً ، بعد قتال يسير وخيانة جلى . وظهر الكومودور نابيير ، بعد ذلك ، امام الاسكندرية وعرض الصلح على محمد علي ، فدارت المخابرات بين الدول والباب العالي ، وسعت فرنسا لدى الباشا العظيم . فاتفق أخيراً على ان يرد محمد علي الى الباب العالي عمارته ، ويأمر ابنه بالانسحاب من سوريا

فعاد الجيش المصري الفائز الى أوطانه ؛ واصدر السلطان عبد المجيد بالاتفاق مع الدول ، فرماني ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ،

الذين بقيا دستور الحكومة المصرية ، حتى أبطلت مساعي اسماعيل الاول معظم نصوصهما ، وأوصلت القطر الى استقلال تام ، لا يقيده سوى قيد الجزية السنوية

* * *

هكذا انتهت حرب سوريا . ولو لم تتداخل السياسة الاوربية المشئومة في مجاري حوادثها ، وتركتها وشأنها ، لنشأ عنها ، على ضفاف النيل من ينابيعه الى مصبه ، وعلى ربوع الشام حتى جبال الاناضول ، دولة مصرية عربية ، على رأسها الاسرة العلوية المجيدة ، ربما استطاعت ، مع تمادي الايام ، ان تعيد الى الشرق عزه وسؤدده ، وربما أثار شأنها روح الغيرة في صدر الدولة التركية ، فجعلها تقوم ، فتعمل ، منذ ذلك الحين ما أقدمت عليه وأتمته في أيامنا هذه تحت قيادة بطلها الاكبر مصطفى باشا كمال ! وربما حدا مثلهما بفارس وافغانستان الى الاقتداء به ، فتنظمتا وتقويتا ، وترقيتا ، فاتحدتا مع الدولة المصرية العربية والدولة التركية ، فكونتا اتحاداً شرقياً عظيما ، كان يكون له في عالم السياسة قدح معلى ، وكانت الامور لا تجري الا باشارة بنانه

ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن

الفصل الخامس

ايام محمد علي الاخيرة

على ان دول اوربا المتحالفة في مصلحة تركيا ضد الباشا الكبير ، وان ارغمته على التخلي عن ممتلكاته الاسيوية ، فقد ضمنت ملك مصر له ولذريته من بعده ، بمقتضى الفرمانين اللذين ارغمت سلطان تركيا على منحهما اياه في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ واعتمدتهما

فبات الرجل العظيم في شيخوخته مطمئناً على سدته المصرية ، مطمئناً على مستقبل اسرته ؛ ولئن زالت من قلبه مطامع الفتح التي اوقدتها فيه رغبته في انشاء دولة عربية مستقلة ، لما وجد بين يديه جيشاً زاهراً لا مثيل له في الشرق ، فقد زالت ايضاً منه المخاوف على مستقبله ومستقبل اولاده التي كانت دسائس الديوان ومساعيه الخفية توقظها في فؤاده وتعلق سيفها فوق رأسه كسيف داموكلس الشهير

فلم يعد يفكر في شيء سوى في تحويل جهوده الباقية الى تمكين حاضر البلاد ومستقبلها من جني ثمار ما غرست جهوده الماضية ؛ ولئن أقفل ، في الحقيقة ، معظم المدارس والمصانع التي كان قد فتحها ، سابقاً ، لما حتمت عليه فتحها احتياجاته العسكرية ، فانه أبقى منها ما كانت تستلزمه الحال السلمية التي آلت اليها البلاد ،

بعد الحروب السورية ، واخذ يكثر من ارسال نجباء المدارس الى اوربا ، ليصبحوا عمال المستقبل

وكان ، بالرغم من دخوله في حلقة الثمانين من عمره ألخصيب ، قد زار السودان ، ليختبر بنفسه شؤونه ويرتب احواله . فلما وضعت تلك الحروب اوزارها ، أقدم يشجع الاكتشافات العلمية والجغرافيـة فيه . فلم يكتف بما بذل من مسهلات ومساعدات لجرانت وسبيك وغيرهما ممن اقبلوا على السفر الى اعالي النيل للوقوف على ينابيعه ؛ بل جهز ، هو نفسه ، حملة لهذا الغرض عينه ، وسيرها تحت قيادة سليم قبطان ، الى جهات خط الاستواء . فقامت بالمهمة خير قيام ووضعت في رحلتها رسالة شيقة ملأى بالفوائد

ولما اكتشفت قوة البخار وانشئت في اوربا السفن البخارية ، والسكك الحديدية ، فان عينه اليقظة لم يفتها الالتفات الى ذلك ، ولم يفت فؤاده الزكي الاقدام على الانتفاع به . فاحضر لنفسه زورقاً بخارياً ليسافر فيه على النيل ، واراد ان يبدل بآلات بخارية رافعة ، الآلات الرافعة القديمة المستعملة في ري الاطيان ، منذ ايام الفراعنة ، لولا انه وجد بسرعة ، ان الوقود الذي تستلزمه الآلات البخارية يجعل استعمالها متعذراً لجسامة النفقات التي يوجبها

ولكنه اراد الانتفاع ، حالا ، بفوائد السكك الحديدية . فاقدم بهمته المعتادة ، على ابتياع مهماتها من اوربا . ولكن فرنسا أبدت له نفورها من ذلك ، وخوفته من عاقبة قيام شركة أنجليزية

بانشاء السكة الحديدية المرغوب فيها . وكان الباشا الكبير لا يعتمد في الملمات الا على تلك الدولة . فأبى اغضابها واهمل مشروعه

وكان ضابط انجليزي يقال له واجهرن قد انشأ بريداً سريعاً بين الهند واوربا عن طريق السويس فمصر فالاسكندرية ، عرف باسم « ذي اوفرلند روت » ؛ ونظم له مصلحة سميت « مصلحة الترانزيت » كان كل عمالها من الانجليز . فاشتراها منه محمد علي ، وزاد في تنظيمها ، وابدل بمصريين جميع عمالها الاجانب ، فاصبحت مصلحة من خير المصالح العائدة على البلاد بالخير الجزيل

ولما رأى ان وسائل الري العديدة التي انشأها في البلاد ، يتضاءل نفعها في سني النيل الشحيح ، اقدم وهو في السابعة والسبعين من عمره على انشاء القناطر الخيرية التي دعوناها معجزة معجزاته العظيمة

وكان قد وقع في خلده ، لاوّل وهلة ، ان يهدم الهرم الاكبر بالجيزة ، لينتفع بحجارته الضخمة في بناء تلك القناطر . ولكنه ما لبث ان ادرك ان نفقات هدم ذلك الاثر الفرعوني الهائل ونقل حجارته تربو بكثير على نفقات استخراج الحجارة اللازمة للعمل من محاجر جبال طرا والمعصرة والمقطم . فعدل عن فكره

وكانت شهرة ما بذله وما لم يكن يفتأ يبذله من الجهود في سبيل النهضة القومية والعلمية في بلاده وفي سوريا ، قد جعلت اكاذيميات اوربا ومعاهدها واوساطها الادبية تكبر من شأنه ،

وتتحدث بآلائه . فرأت الاكاذيميات الالمانية ، قبل الجميع ، ان تتشرف بادماجه في عضوية هيآتها . فبعثت اليه بالبراءات المنبئة بذلك ، والتمست ألا يبخل عليها بانالتها الفخر الذي كانت راغبة فيه . وما لبثت باقي الاكاذيميات الاوربية الهامة ان اقتدت بها

ورأى السلطان عبد المجيد ان يشرف نفسه باظهار حقيقة تقديره لرجل الشرق الاسلامي المعاصر الاكبر ، بالرغم من انه قاتل دولته ، وكاد يقضي عليها . فقرر رفعه الى رتبة الصدارة العظمى وتقليده وسامها ما دام حياً . وارسل اليه بذلك خطاً شريفاً ، ودعاه لزيارته في الاستانة

فلبى محمد علي الطلب : وبالرغم من انه بات على ابواب الثمانين من عمره السعيد ، ركب البحر ، وذهب الى دار السعادة حيث قوبل بما لا يمكن وصفه من مظاهر التعظيم والاجلال ؛ وحيث انفق نيفاً وعشرة ملايين من الفرنكات في اعمال البر والاحسان

وبعد ان اقام في ضيافة السلطان اياماً — كان ابراهيم ابنه البطل المجيد ، في خلالها يزور فرنسا ، بعد ان زار ايطاليا ، ويلقى من حفاوة الملك لويس فيليب والشعب الفرنساوي به ما يثلج صدره هناءً ، ثم ينتقل الى زيارة انجلترا وينزل ضيفاً كريماً على جلالة الملكة فكتوريا — اقلع محمد علي من الاستانة الى قوله مسقط رأسه ، وقضى فيها زمناً يستنشق هواء سني صبوته وحداثته وشبابه اليانع الاول ، ويغدق على مواطنيه براً ظنوا معه ان العناية الالهية زارتهم

في شخص ذلك الشيخ الوقور الجليل

ثم عاد الى مصر . ولكنه لم يقم فيها الا قليلا وشعر بداء في المعدة والامعاء ، فاشار عليه الاطباء بالذهاب الى مالطا ، للتطبب منه بتغيير الهواء . فذهب اليها مصطحباً معه ارتين بك يوسفيان والد يعقوب باشا ارتين الذي عرفناه وكيل وزارة المعارف في عهدنا هذا — وكان ارتين بك قد أخلف على ثقة محمد علي المتناهية ، وزيره الخلص بوغوص بك يوسف

ولكن تغيير الهواء لم يفد . بل زاد الداء استعصاءً ، وما لبث ان سرّب خرفاً الى ذلك العقل السامي الذي كان نوره قد أضاء على قطرنا المصري نيفاً وثماني وأربعين سنة

فعاد الامير الى القطر ، وقد هزلت قواه الجسدية والعقلية معاً . فتسلم ابراهيم ابنه — البطل المغوار — زمام الاحكام . وزار — هو أيضاً — الاستانة ، لتقلد الامر فيها على مصر رسمياً . ولكنه — بعد ان عاد منها — لم يمكث على قيد الحياة الا أياماً معدودة . ولم تكمل ثلاثة شهور على قيامه على سدة أبيه . الا ووافاه اجله فخلفه عباس الاول

وكان محمد علي قد انزوى عن العالم ، يقضي أيامه تارة في اعماق سراي رأس التين وطوراً في شبرا ، في الحديقة الغناء والقصر الجميل المنشئين هناك ، لا يعلم بما يجري حوله من الامور

فلما كان صيف سنة ١٨٤٩ غادر مصر القاهرة ، للمرة الاخيرة ،

وذهب يستنشق هواء البحر الملح ـ بحر أيامه الاولى ـ في الاسكندرية ، ولكن الاجل المحتوم وافاه في سراي رأس التين يوم ٢ اغسطس فوضع جسده في وسط قاعة فسيحة وغطي بالاكفان النفيسة . وقام ابنه محمد سعيد باشا يستقبل وفود المعزين . فمر القناصل والوجهاء أمام الجثة الراقدة المغطاة ، ووقفوا مأخوذين أمامها يفكرون في عظمة الحياة التي انطفأ سراجها ومجدها، ويمرون بمخيلتهم على الحوادث العجيبة التي كان النفس الذي رحل بطلها !

ثم نقل ذلك الجسد المجيد الى العاصمة ودفن في المسجد الرخامي المرمري الذي أنشأه محمد علي على جبهة قلعة الجبل ؛ وهو راقد هناك ، الى يومنا هذا ، يشرف من علاه على القطر المصري برمته . ومن يدريني ان روحه لا تأتي ، احياناً ، فتزور ذلك المكان، كاعتقاد المصريين القدماء، وتبارك ، من ذلك المقام الرفيع ، البلاد بأسرها !

الفصل السادس

وصف محمد علي وتقدير عمله

اما ، وقد القينا نظرة سريعة على اهم حوادث تاريخ محمد علي ، فانه لم يبق علينا الا ان نعرّف الرجل وصفاً واخلاقاً — ولو ان الحوادث التي رويناها ومواقفه فيها اظهرت كثيرا من صفاته واخلاقه : لان خير ما يصف الرجل التاريخي مواقفه في حوادث تاريخه — وان نزن ، في ميزان الانصاف ، عمله ، ونرى الى اي النتائج أدى

* * *

كان محمد علي ربعة القامة ، واسع الجبين ، بارزه ، مقوس الحاجبين جداً . ذا عينين سوداويين ، غائصتين في دائرتيهما ، وأنف ضخم يغلب عليه الاحمرار، وفم صغير باسم . وكان يتجلى على ملامحه مزيج موزون من الذكاء الدقيق والبشاشة المحببة . على ان تلك الملامح كانت تتشكل بسرعة ، بشكل انفعالات قلبه ، وكانت لحيته الجميلة البيضاء — واعتناؤه بها كان كبيراً — تحيط وجهه بهالة من نور

واما يده فكانت آية في حسن صنعها . وكان قوي البنية ،

سليمها ؛ أنيق الحركة ؛ ثابت المشية ، موزونها ، كأن عليها مسحة من الدقة العسكرية . على ان جسمه كان ـ اذا مشى ـ يترجرج قليلا ، مع تمام انتشار قده . وكثيراً ما كان محمد علي يجمع يديه خلف ظهره ، ويخطر ـ وهو كذلك ـ ذهاباً واياباً في حجر سراياته

ولم يكن يحب البذخ في الملابس ، بل كان يبالغ في بساطتها الى درجة ان كثيرين ممن لم يكونوا يعرفونه شخصياً ، كانوا يظنون انه أحد الاتباع ، لا الباشا العظيم نفسه . وكان الوقار والجلال يكسوان جميع حركاته وسكناته ؛ فما كنت تستطيع ، وانت في حضرته ، ان لا تؤخذ بمهابته ، وتقول في نفسك « هذا ملك ، حقيقة ! » مع انه لم يكن يحتاط البتة بخدم وحشم وحرس مسلح ؛ ولم يكن يقيم على بابه الا حاجب واحد ؛ واذا ما دخلت عليه في ديوانه ، حيث كان يقيم اكثر أوقاته ، وجدته أعزل من السلاح ، يتداول ، في يده ، علبة نشوق ثمينة أو سبحة نفيسة . وكان كبير الغرام بلعب البليردو ، والشطرنج ، والضامة ، لا يستنكف ان يلعبها مع أي ضابط كان من ضباطه ؛ ولو من أصاغرهم ؛ بل مع نفس عساكره .

على ان قناصل الدول واكابر القادمين في سياحة الى القطر هم الذين كان يلعب البليردو معهم عادة ، غير انه بالرغم من قلة اعتنائه بمظاهر العظمة كان كبير التدقيق في ان لا تتعدى في حضرته حدود اللياقة والاداب الشرقية .

حكى المستر باركر في كتابه المعنون « مصر وسوريا في عهد سلاطين تركيا الخمسة الاخيرين » انه ، وهو قنصل لدولة بريطانيا العظمى في الاسكندرية ، قدم لمحمد علي الاميرال سير بلتني مالكولم فقابله محمد علي وكل وجهه بشاشة وابتسام لا سيما انه كان في ذلك الوقت كبير الاهتمام بعمارته البحرية ويرغب ان يكلم في شئونها ذلك الاميرال الانجليزي . وحدث انه أثناء المحادثة أبدى ملحوظة جعلت الاميرال يضحك بقهقهة طويلة فأنكر محمد علي ذلك عليه ونظر اليه نظرة المستغرب الاستغراب كله : فانه لم يجسر أحد، الى ذلك الحين ، ان يضحك في حضرته ضحكا عالياً كضحك ذلك الاميرال . على ان هذا لم ينتبه الى ان عمله كان مغايراً للآداب المطلوبة في حضرة الامراء والملوك ، اما لخفة في عقله واما لاستهتار منه بأمير شرقي . فأغرق في الضحك عينه مرة ثانية ، فمرة ثالثة . فأدرك محمد علي ان ذلك عادة عند الرجل ولكنه غضب منها ؛ ولم تنته مقابلته للاميرال بالبشاشة التي بدأها بها

وحدث بعد ذلك بعدة أيام ان انجليزياً آخر موصى عليه من المراجع العليا طلب مقابلة محمد علي وقابله بواسطة المستر باركر عينه ولكنه أبى ان يمتثل للتعليمات التي أسداها له القنصل بشأن كيفية سلوكه في حضرة الامير ، لظنه انه أدرى بآداب السلوك من المستر باركر ، فدخل على محمد علي مرتدياً جاكتة بيضاء وبطربوش على رأسه . ولما جلس بين يديه انتزع الطربوش من على رأسه . فبدا

رأسه اصلع تمام الصلع أمام عيني الامير

فاستنكر المستر باركر عمله وما فتىء يومىء اليه بلبس الطربوش لعلمه ان العادات الشرقية تحتم تغطية الرأس في حضرة الكبراء . ولكن صاحبنا لم يلتفت الى اشارات القنصل واستمر على ماهو عليه وزاد اعتقاده في انه أدرى بالاداب الشرقية من القنصل

فلما انتهت المقابلة ، وعاد المستر باركر الى منزله ، أتاه ترجمان محمد علي موفداً اليه من الامير ليبلغه عدم رغبة سموه في ان يقابل في المستقبل انجليزياً ولينهاه عن طلب مقابلات لهم

وكان سخيّ اليد سخاء حاتمياً يكاد يداني الاسراف . كما انه كان شديد التأثر ، سريعه ، بالمؤثرات المباغتة ، لا يستطيع الا بصعوبة اخفاء ما تحدثه في نفسه . وكان ـ كالاسكندر الكبير ، مواطنه ، وعلى الاخص كقيصر الروماني ـ شديد الميل الى النساء ، كبير الشغف بهنّ ، مع كثرة احترامه لزوجته الاولى التي سعد بطالعها السعيد . ولكن شغفه بالمجد كان اكبر . فكثيراً ما كان يفكر في الرواء المحيط باسمه ، ويتكلم بفخار وحماسة عن حوادث حياته العجيبة . ولشغفه بالمجد كان كبير التأثر بما تقوله الصحافة الغربية عنه . فيأمر بترجمة معظم الجرائد ، ومتى وجد في احداها طعناً عليه ، تألم منه ألماً شديداً . وكان يعتقد ان مطاعن الصحافة أضرت به كثيراً ، وحملت الدول على معاكسته في نزوعه الى الاستقلال ، لا سيما مطاعن جريدة كانت تنشر في ازمير ، فتذيع

في اوربا اشنع المثالب ضده ، وترمي حكومته بافظع التهم ، حتى لقد قال ، مرة ، لاحد اخصائه : « ليتني اشتريت بمليون ريال عدم ظهور تلك الجريدة الى الوجود ! فقد كان في استطاعتي : لان صاحبها عرض عليّ خدمته دهراً ، فرفضتها ! »

وكان ، لكثرة ما اعترض حياته من الحوادث الجلى ، قليل النوم ، مضطربه في الغالب . ولذا فان عبدين كانا يسهران دائماً بجانب سريره ، ليهذبا الاغطية التي كان لا ينفك يعبث بها في نومه . ولكنه ، بالرغم من نومه القليل كان كبير العمل وكثيره . فيستيقظ الساعة الرابعة صباحاً ، ولا يفتأ النهار كله مجداً يشتغل في شتى الأعمال . وكان يحسن الحساب ، ولو انه لم يتعلم فنه . ولانه كان امياً اقبل يتعلم القراءة على يد احدى جواريه ، وهو في الخامسة والاربعين من سنه ، وذلك بالرغم من انشغال فكره بالشئون العامة العديدة والتي كان الكثير منها كبير الخطورة

وكان ـ مع اخصائه ـ قليل التحرس ، مفتوحاً ، محباً للوقوف على ما لا يفهم . وكثيراً ما كانت استفهاماته تنم على جهله وسذاجته ؛ ولكنها كانت تنم ايضاً ، على ذكاء مفرط ، وادراك بعيد الغور . واما اجاباته في المحادثات فكثيراً ما كانت تناسب بكيفية بديعة مع المقام والمجال . يحكى من هذا القبيل أن أحد القناصل أطنب ، ذات يوم ، في حضرته ، اطناباً فائقاً بتصوير لهوراس فرنيه ، المصور الفرنساوي الشهير ، رسم فيه مجزرة المماليك ، وأعجبت باريس

به ايما اعجاب . فقال له محمد علي : « ان للمصور في مجزرة مماليك بونابرت التي قام بها شعب مرسيليا لمادة لتصوير آخر يضعه ازاء التصوير الذي تذكره ! » ويحكى ايضاً ان بعضهم آخذه يوماً على تعاريج ترعة المحمودية ومنحنياتها — وسببها ان المهندسين الذين اشتغلوا فيها تحت رياسة المهندس المعماري كست ، كانوا من الجهلاء وانها عملت بدون تصميم سابق ، وبدون تجهيز تمهيدي ؛ وان الفعلة ، استدعوا وشغلوا في حفرها تحت مراقبة مشايخ بلادهم وزعمائهم ، قبل اخطار المهندسين بحضورهم ، فلم يتمكن هؤلاء من تعيين جهات العمل لكل فرقة وطائفة من القادمين ، واضطروا الى جعل كل يشتغل حيثما يشاء ، على ان يكون الحفر في الاتجاه الموضوع ؛ ثم لما احتاجوا الى وصل الحفر بعضه ببعض ، اضطروا الى عمل زوايا ومنحنيات باحسن ما في الاستطاعة — فسأل محمد علي المعترض ، قائلا : « هل الانهار في بلادك ذات سير مستقيم ولا تعاريج فيها ؟ » اجاب : « كلا » . فقال محمد علي : « ومن صنعها ؟ » اجاب : « الله ! » فقال : « وهل تريد ان يكون صنع الانسان خيراً من صنع الله ؟ »

وكان بطبعه ميالا الى الاثرة والعنف . ولكنه كان يدري كيف يشكم ميوله ، ويسير بمنتهى الفطنة والمهارة فيما يرسمه لنفسه من الشئون . وبالرغم من ميله الى الغضب بسرعة ، كان ما جبل عليه من طيبة طبيعية يحول دون اقدامه على الاساءة ؛ وكثيراً ما

افرط في التهاون عن المعاقبة الى حد عدم المبالاة بها بتاتاً ؛ وكثيراً ما تساهل في الصفح عن طيبة خاطر ؛ بل كثيراً ما نسي سيئات خطيرة ارتكبت ضده . على ان زمام هواه كان يفلت ، احياناً ، من يده ، فيندفع مع تيار انفعاله اندفاع الرجل المستبد بلا تعقل

مثال ذلك : انه اتته ، مرة ، ضمن مجموعة نباتات استوردها من اوربا داليا غرسها بستانيه في الارض في محل تتناوله الشمس من كل جهة ، بعيداً عن الكشك الذي كان محمد علي يحب ان يجلس فيه . فازهرت ، وتألقت بدون ان يلتفت الباشا اليها . ولكنه اتفق ان زائراً أجنبياً بالغ ، يوماً ما ، في وصف جمالها . فلفت اليها نظر محمد علي . فاعجب بها . وامر في الحال بوضعها في صندوق ونقلها الى تحت الجميزة التي كانت تظلل كشكه ، فاعترض البستاني وقال : « ان مثل هذا العمل قد يقتل الزهرة ! » فقطب محمد علي حاجبيه واقسم بانه يدفن حياً من يدعها تموت ! فامتثل البستاني للامر . ولكن الداليا ، من غد ، اخذت في الذبول ومالت على ساقها . فما كان من محمد علي الا انه ، لظنه بان البستاني تعمد قتلها ، أمر به : فطرح ارضاً وضرب بالسياط ، بالرغم من احتجاجه ! ولكنه ما انفك يقول انه ليس في الاستطاعة حمل الزهور على الطاعة كبني الانسان ، وليس من الحكمة التحكم فيها كالتحكم فيهم ، حتى آب محمد علي الى صوابه ، واوقف الضرب ، وما لبث ان بعث بهدية فاخرة للبستاني بمثابة تعويض له عما لحقه من الضرب

ويحكى أيضاً انه أوصى بستانييه ، يوماً ، بالاعتناء ببضع أشجار برقوق أتته من اوربا . فأطاعوا وانمرت احداها ، ولكن ثمراً قليلا . وكان محمد علي قد تتبع حركة نموها وطرحها . وخطر له ، يوماً ، ان يذوق من ذلك الثمر ، وهو فج . فاستطعمه جداً ، وأمر ناظر بستانييه بالاعتناء بالثمرات الخمس أو الست الباقيـة الاعتناء كله . فأحاط الناظر الشجرة بشبكة من الخيط ليحفظ الثمر من العصافير ، وعهد أمر الاعتناء بها الى بستاني خاص . ولـكنه حدث ان عاصفة مرت بالشجرة ، فأوقعت البرقوقات كلها الا واحدة . على ان هذه الواحدة بلغت من الرواء والحجم والنضوج ما لم يعهد له مثيل . ولـكن محمد علي لم يعد يسأل عنها . فتداول الناظر مع مرءوسيه ، واجمع رأيهم على ان وقت قطف البرقوقة قد حان ؛ فان لم تقطف ، وقعت أو فسـدت . فقطفوها ، ولفوها في قطن ، ووضعوها في علبة ، وأرسلوها مختومة على يد ساع خاص الى سمو الامير . وكان الزمان رمضان ، ومحمد علي ، لتوعك في مزاجه ، يتناول طعام الافطار في دور الحريم . فقدم له البرقوقة ، ضمن فواكه أخرى ، خصي لم يكن اعلمه أحد بعظم اهميتها لدى مولاه . فأكلها محمـد علي بدون انتباه ، وبدون التفات الى انها الفاكهة التي اوصى بالمبالغة في الاعتناء بها

بعد بضعة أيام ذهب الى بستانه ، وتوجه تواً ليرى ماذا جرى ببرقوقه . فلم يجد على الشجرة من ثمرة . فاعترته هزة غضب شديدة ،

لم تدعه يتأنى ليستفهم . فأمر بناظر البساتين . فألقي أرضاً تحت الشجرة ، وانهال عليه الضرب . ولكنه ما عتم ، بصراخه . ان جعل مولاه يصغي اليه . فقص عليه الواقع . فأرسل محمد علي يستقدم الخصي . وأول ما وقعت عينه عليه من بعيد ، سأله : « أصحيح اني أكلت برقوقة ؟ » فأجاب الخصي : « نعم ، يا مولاي ، منذ بضعة أيام في طعام الافطار ! » فصرخ محمد علي : « ولم تقل لي شيئاً ، يا شقي ؟ » وبدت منه اشارة ، ما لمحها الخصي الا وركض ووثب على جواد الباشا — وكان هناك مسرجاً على مقربة منه — وذهب يعدو به الغيطان ، قبل ان يفكر أحد في القبض عليه . ثم أقام أياماً مختبئاً لا يجسر على الرجوع الى السراي . ولكن محمد علي عاد فصفح عنه

وكان محمد علي مسلماً مخلصاً في دينه ، يقوم باداء فرائضه بكل نشاط . ولكنه لم يكن بالمغرق في عبادته ، ولا بما يدعوه الغربيون « متعصباً » بل كان واسع الصدر جداً لجميع الاديان ، وأظهر من الشجاعة الادبية في ذلك ما كان عجيباً في عصره ووسطه .

ولهذا السبب عينه ، كان بعيداً عن الاعتقاد بالخرافات والخزعبلات . فيحكى ، للدلالة على ذلك ان امرأة ، في دمنهور ، قامت وادعت ان عليها شيخاً من الجن اذا ما حضر أتى من المعجزات ما تحار له العقول . وساعدها على اثبات افكها انه كان في استطاعتها التكلم من بطنها ، فيخرج الصوت منها كأنه آت من

اعماق ما وراء المادة . فلما رأت نجاح أمرها في بلدها ، سولت لها نفسها الذهاب الى مصر ، على أمل ان يكون نجاحها هناك اكبر . وكانت العاصمة اذ ذاك غاصة بالجنود المحتشدين فيها للسير الى مقاتلة الانجليز . فراج افك المرأة بينهم واعتقدوا فيها الولاية . وبات لها نفوذ عظيم على عقولهم الساذجة السمجة . ولما كانت عقلية ضباطهم لا تفضل عقليتهم في شيء ، شاركهم الضباط في اعتقادهم ، وأصبح لا يجسر أحد على الشك في حقيقة الشيخ الساكن في تلك المرأة . لا سيما وان الكثيرين من المصدقين فيها سمعوا صوته في ظلام الليل ، وان بعضهم تشرف بلثم يده ...

وما زال أمر هذه المرأة يكبر ويعظم حتى نمى الى محمد علي . فجعله يوجس خيفة من ان يستغل طماع مركزها ، فيحدث فتنة قد تكون خطرة على سلطته في تلك الآونة الكبيرة الحرج . فصمم على رؤية الشيخة ــ كما كانوا يسمونها ــ وبعث بأربعة من المشعوذين اليها لاحضارها معهم واعداً كلا منهم بعشرة أكياس اذا هم احضروها ، فوافوها ، وهي في دار الباشاغا ــ رئيس خفر الليل ــ وقد التف حولها جم غفير . وأرادوا أخذها الى الوالي . فمانعهم الحضور ، ومنعوهم من اتمام مأموريتهم ، لئلا تنهار الدار على من فيها ، فعاد المشعوذون من حيث أتوا ، والخزي يحيط بهم ؛ وتبجح المعتقدون فيها بان شيخها حماها وفاز على الوالي نفسه

فكبر شأن المرأة ، وأصبحت لا تمر في شوارع العاصمة الا

وهي راكبة جواداً ومحاطة بجمهور من الاتباع يتغنون بمدائحها

فعزم محمد علي على التخلص منها ، وأصدر أمره الى رئيس الشرطة باحضارها اليه . فجاءه الرئيس بها قبيل الغروب يتبعها جمهور لا يحصى عدده من الناس ، أتوا ليشاهدوا ما يكون من أمرها مع الامير

وكان محمد علي جالساً في ظل جميزة يدخن شيشته . فلما بصر بالشيخة ، قال لها انه ، بعد اذنها ، يريد ان يتكلم مع الشيخ الذي عليها . فأجابت بان هذا غير مستطاع الا في الليل لان الشيخ ذهب في ذلك الوقت ، لاداء صلاة المغرب في مسجد سيدنا الحسين . فسألها الباشا : « أو يغيب حتى يحضر ؟ » قالت : « كلا ! سيكون هنا بعد صلاة العشاء ! » فصعد الباشا الى دار حريمه ليتعشى ؛ وبقيت الشيخة مع بعض المفضلين في قاعة بأسفل الدار

فلما جن الليل نزل محمد علي وسأل : « هل حضر السيد ؟ » قالت « نعم ! » فأمر ، بناء على طلبها باطفاء الانوار ؛ ولكنه أوصى ، سراً ، خدمه باحضار غيرها ، حالما يبدي لهم اشارة بذلك. ثم جلس وقال للشيخة : « استدع استاذك ! » فنادته ، قائلة : « يا شيخ علي ! » واذا بصوت كأنه خارج من اعماق الارض أجاب النداء ، وأخذ يزيد جلاء ووضوحاً كلما زادت عليه الاسئلة ؛ وظهر ، حيناً ، للحضور ، كانه يكلم كلاً منهم في أذنه . فسرت في الجميع قشعريرة ، وأعلن محمد علي انه آمن بولاية الشيخة . ثم طلب ان يشرفه السيد

باعطائه يده ليقبلها . فمدت اليه اطراف أنامل ، فقط . فما اكتفى محمد علي بها ، وألح باعطائه اليد كلها . فقدمت له . فقبض عليها بقوة ، وأبدى الاشارة المتفق عليها . فانتشرت الانوار فجأة في القاعة . واذا بالشيخة تجتهد ، وسعها ، لتمليص يدها من قبضة محمد علي . فلما رأت ان أمرها افتضح ، خرت عند قدمي الامير ، وطلبت العفو منه . ولو كان الحاضرون من ذوي الافهام المفتوحة ، لادركوا في الحال افك المرأة وانفضوا من حولها . ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الغباوة . فاعتقدوا ان محمد علي انتهك حرمة الشيخ ، وطفقوا يتململون ويتذمرون . فصرخ بهم محمد علي :

« أيها المجانين الجهلاء ، أفيخدعكم مثل هذا الكذب الظاهر ؟ »

ثم التفت الى حرسه ، وأمرهم بالقاء الشيخة في النيل . فما سمع الحاضرون هذا الامر ، الا وضجوا وهاجوا ، وماج لهياجهم الجمع المحتشد بالباب ، وكادت تقوم فتنة . ولكن الباشا قال بثبات جأش عجيب: « مم تضجون ولم تصخبون ؟ فاما ان هذه المرأة عليها شيخ حقيقة ، وهو لن يتخلى عنها ، بل ينقذها من الغرق ؛ واما لا شيخ عليها ، وتكون قد خدعتكم ، فلا يصيبها الا ما هي به جديرة ! »

فأمن القوم على كلامه . وألقيت المرأة الشقية في اليم ! ومكث جمهور عظيم من أتباعها ينتظرون ، دهراً ، رجوعها وظهورها ، على جناحي الشيخ علي القديرين . ولولا تعنت الجهلاء المؤمنين بها لاكتفى محمد علي باظهار كذبها ولما رماها في النيل

واتفق في سنة ١٨٢٥ ان النيل شح واخذت مياهه في الهبوط منذ شهر اغسطس فأمر محمد علي باقامة صلاة الاستقاء ، ودعى اليها احبار جميع الاديان والمذاهب ، قائلاً : «انما تكون مصيبة كبرى ان لم يوجد بين جميع هذه الاديان دين واحد جيد ! »

وكان أباً محباً لاولاده ، كبير الشفقة والتعلق بهم . فمن احسن ما يروى عنه ، للدلالة على ذلك ، الحادثة الآتية : تمكن الوهابيون ، يوماً ، من حصر ابنه طوسن باشا في الطائف . وكان محمد علي في مكة ، ليس لديه من الجنود الا القليل . فاشار عليه اخصاؤه وقواده بالمسير الى جده ، ليكون على مقربة من مراكبه فيستطيع الرجوع الى مصر اذا ما اضطرته الظروف الى ذلك . اي انهم اشاروا عليه بترك ابنه وشأنه . فاجابهم محمد علي : «كلا اني لا أريد الابتعاد ؛ بل اني قائم لانقاذ ولدي ! » وارتحل برفقة اربعين مملوكا فقط ووصل الى قرب الطائف ، وهو لم يدبر ، بعد ، تدبيراً . فاختار أن يرتاح أولا . وبعد أن اوصى احد مماليكه بايقاظه اذا طرأ طارىء ، توسد الارض ونام . وبينما هو غارق في سبات نوم عميق ، أتي بجاسوس وهابي أسر وهو يجوس خلال الجيرة . ولكن المملوك المكلف بحراسة محمد علي ، اضطرب لما سمع الجلبة ، وأسرع فايقظ مولاه برعبة جعلت فرائص محمد علي ترتعد . لانه اعتقد ان جيش الوهابيين داهمه . فاعترته لذلك شهقة لم تعد تفارقه ، واخذت تنتابه كلما اشتدت عليه وطأة انفعال ما . ولكنه ما لبث ان هدأ روعه ،

واقبل يستجوب الجاسوس بنفسه . فاسترشد باجاباته ، وقال له : « اني على رأس مقدمة جيش محمد علي ، فاذا شئت ان تحمل الى طوسن باشا خبر قدوم والده اليه ، فانه يعطيك مكافأة قدرها مائة ريال » فقبل العربي الجشع وذهب بالرسالة الى طوسن ونال منه الجائزة التي وعد بها . ولكنه اسرع ، بعد ذلك ، الى معسكر الوهابيين . وانبأهم باقتراب محمد علي على رأس جيش زاخر . فنجحت حيلة محمد علي ايما نجاح . وما هي لحظة الا واقتلع الوهابيون خيامهم وتفرقوا عن الطائف ايدي سبا

فانقذ محمد علي ابنه بهذه الكيفية واحرز فوزاً باهراً جزاء مخاطرته المدهشة في سبيل انقاذه

وكان صديقاً صدوقاً كثيراً ما آلمته مصائب رفاقه وابكاه موتهم . ولم يدع واحداً منهم الا واشركه في تدرجه نحو المعالي ، ورقاه معه اليها . ثم أغدق عليه العطايا والنعم

وكان باراً بمواطنيه المكدونيين ، يقابل اياً كان منهم ببشاشة وعطف ، باراً ببلاده ، وبمسقط رأسه ؛ ما فتىء ، طول حياته ، يدفع عن اهل قوله ، الضرائب المفروضة عليهم . وما فتىء محافظاً على المنزل الذي ولدته فيه امه

وكان كبير الاعجاب بالاسكندر الاكبر والبطالسة : كان مواطنته لهم اوجدت بينهم وبينه اواصر قرابة . فيوماً ، اذ سمع بعضهم يذكر للاسكندر عملا مجيداً آخذاً بمجامع القلوب ، ومثيراً

للاعجاب ، هتف بخيلاء : « وانا ، ايضاً ، من فيلبي ! » وكان لا يميل الى سماع شيء ميله الى سماع تاريخ المكدوني العظيم وتاريخ ناپوليون : كأنه يشعر بان التاريخ سيضعه يوماً ما بجانبهما في اعجاب البشر

وكان شديد الحب لارض مصر ، هائماً بها ، حتى انه قال يوماً لزائر من الغربيين : « اني أحب مصر حب المغرم الولهان بمالكة فؤاده . ولو كان لي عشرة آلاف عمر لاعطيتها كلها في سبيل الحصول عليها »

لذلك كان كبير الحرص على هذه الارض العزيزة ؛ متيقظاً تيقظاً غريباً لسد كل باب قد ينشأ عنه تداخل اية دولة اوربية كانت في شئون البلد الداخلية

فرفض ، لذلك ، الموافقة على مشروع انشاء ترعة السويس كما رسمه طالابو احد السانسيمونيين الذين سبقوا دي لسبس الى درس مسألة الوصل بين البحرين : لان ذلك المشروع كان يقضي بان تنشأ الترعة من الاسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى السويس فتجتاز مراكب الدول داخلية البلاد ، رافعة علم دولها فيحدث من الطوارىء ما يبرر تداخل احدى تلك الدول في الشئون المصرية !

وقد روى لي ثقة ان الملكة فكتوريا أرسلت الى محمد علي كتاباً مخطوطاً بيدها تطلب منه فيه بيع قطعة أرض في السويس

لشركة البنينسيولر أند اورينتل ، ليبني عليها مهندسون ترسلهم من قبلها فندقاً ينزل فيه القادمون من الهند والذاهبون اليها ، عن طريق السويس . وان قنصل بريطانيا العظمى سلم ذلك الكتاب الى محمد علي يداً بيد

فقبله محمد علي ووضعه على رأسه اجلالا للملكة وتعظيما للمرأة الكريمة ؛ ولكنه قال للقنصل : « ان ارض مصر ليست ملكا لي ، بل هي ملك الامة ، وما انا عليها الا امين . فلا استطيع اعطاء شيء منها لغريب . ولكن رضى الملكة يهمني جداً . وعليه فاني ارجوها أن تتفضل وتأمر الشركة بان تبعث اليّ بتصميم الفندق الذي تبغي اقامته في السويس وانا اكفيها مؤونة ارسال المهندسين وابنيه بمهندسين من عندي ، ثم أؤجره لها ! »

وهكذا كان . فان محمد علي شيد ذلك الفندق على نفقته ، وأجره لتلك الشركة بايجار موافق استمرت الحكومة المصرية تقبضه حتى عهد قريب

* * *

ذلك كان الرجل ؛ وقد رأينا ما كان عمله ، بعد ان استتب له الملك . فهل قصد منه سعادة مصر ومجدها ، ام ابتغى مجرد الشهرة ، وما سعى الا وراء جني منافع شخصية ؟ لقد اختلف المؤرخون في ذلك : فنهم من قدح ؛ ومنهم من مدح . وكلٌ برر قدحه أو مدحه بوقائع محددة اتخذها حججاً وبراهين

على انه مهما يكن من ذلك ، فما من أحد يقدر ان ينكر ان محمد علي بلغ ما بلغ من الرفعة والشهرة والمقام المحمود بفضل قوة ادراك عظيمة وثبات نادر ، وروح سلوك وزنت كل حركاته وسكناته وزناً عاقلا حكيما ؛ وحسن ملمس دقيق دقة متناهية وعزم دون فله خرط القتاد وحزم متفنن قضى على كل حزم سواه

ولا يسع المؤرخ المنصف ، مع التسليم بان الله وحده المطلع على النيات ، الا الاعتراف بان اعمال محمد علي ان أفادته قبل الجميع وفوق الجميع ، فقد أفادت البلاد فائدة لا يمكن ان نجد لها مثيلا الا اذا صعدنا مجاري التاريخ وعدنا الى ايام الفراعنة الكبار

ولئن اكتنفتها مظالم ومغارم كثيرة ـ ودخل في القاعدة التي أقيمت عليها مزيج كبير من الاثرة والاستبداد ـ كاحتكار محمد علي الاستغلال الزراعي والاتجار بمحصولات البلاد ـ فانما كان ذلك لانها أعمال انسان ، ولا يمكن الا يمتزج الشر بالخير في أي عمل يعمله البشر . والشر ممتزج بالخير امتزاجاً كبيراً في طبيعة الوجود ذاتها

على ان الشر الفردي المرافق للخير والممزوج معه لا يلبث ان يتلاشى ويزول . واما الخير فيبقى الى الابد . وهذا هو الذي يحبب الى الانسان الحياة

فاذا طبقنا هذا المبدأ على أعمال محمد علي ، نجد انه لو لم يستأثر بالاطيان لما خدد الارض المصرية ترعاً وجداول ، ولما

أدخل الى الزراعة المصرية شتى النباتات الجديدة لا سيما القطن والزيتون. فاستئثاره بالاطيان زال . واما الترع والجداول والنباتات الجديدة فباقية

ولو لم يستأثر بالمحصول والاتجار ، لاستمر القطر منفصلا عن العالم الا قليلا ، كما كان في عهد المماليك ، وما انتشرت فيه حركة المدنية الحالية ، التي كيفته فجعلته في مدة وجيزة من الرقي والتقدم ، بما لم يتيسر مثلهما للاقطار المجاورة له شرقاً وغرباً . اما الاستئثار بالمحصول والاتجار فقد زال ؛ واما حركة المدنية فباقية ؛ ورقي القطر وتقدمه نبني اليوم عليهما تأكيدنا باننا بلغنا النضوج ، ونحتج بهما للمطالبة بالاستقلال

ولو لم يجمع المال بكل وسيلة فأرهق أجدادنا ارهاقاً عظيما في جمعه ، لما تمكن من ابراز أي انشاء كان الى الوجود من المنشئات العجيبة التي ذكرناها ، والتي غيرت وجه القطر تغييرا تاماً . فأما الأرهاق فزال ؛ واما المنشئات فباقية

ورب معترض يقول هنا : أجل ! ولكن هذه المنشئات عينها أو غالبها ما أقامها على قواعدها الا الارهاق ! فأجيب : نعم! نعم ! ولكنه لم يكن عنه بد . واني أكرر ان الارهاق مضى ، واما هي فباقية

خذوا مثالا ترعة المحمودية . فان الرواة الطاعنين على محمد علي يزعمون ان في تراب جسريها مدفونة عظام أكثر من عشرين الفاً

من الفلاحين الذين اشتغلوا في حفرها

قد يكون ذلك وان قلبنا ليذوب حسرة على نكد طالع اولئك البؤساء ؛ ولكنهم زالوا ؛ وزال معهم بؤسهم . واما المحمودية فباقية، وليس بين ألوف الالوف ، الذين يستفيدون منها ، اما للارتواء ، واما للري ، من لا يذكر بخير محمد علي منشئها ويبارك اسمه !

هكذا لولم يستعمل العسف والاستبداد في التجنيد والتعليم ، لما وجد لمصر جيش ولا عمارة بحرية ؛ ولا وجدت فيها حركة معارف وعلوم وفنون . فاذا اعترض معترض وقال : « ولكنه لم يبق شيء من الجيش والعمارة ؛ وزالت في أيام محمد علي عينها ، معظم معاهد العلم والصناعة التي أنشأها » ، قلت : نعم . هذا صحيح . ولكن الفائدة الادبية التي اكتسبتها مصر من ذلك جميعه لم تزل . بل استمرت ثمرتها يانعة . فلولا الجيش والعمارة ، لما قامت بين عنصرينا قوائم الوحدة التي تم بناؤها اليوم ، والتي نفاخر بها أيما مفاخرة ؛ ولولا الفتوحات لما تغيرت النفسية ، ولاستمرت القلوب مستكينة الى الذل . ولولا معاهد العلم والصناعة لاستمرت روح اقتباسها نائمة فينا ، ولما نالت مصر شبه استقلالها

ومهما دُفع في الاستقلال من ثمن ، لا يعتبر غالياً

لذلك جميعه نرانا ميالين الى فريق المعجبين بمحمد علي ؛ ميالين الى تقليب صفحات حياته الساطعة لا صفحاتها المظلمة . ولو فعل التاريخ ذلك دائماً ، حين يروي أعمال الاعاظم والاجاويد من بني

الانسان ، وطوى كشحاً عن سيئاتهم ، لكان ذلك ادعى الى رفع مستوى الانسانية ؛ وأقرب الى حملها على التزين بحميد الصفات.

ولو كنا ممن يعتقدون بتعدد الاعمار ، أي بعودة الانسان مراراً الى هذه الحياة الدنيا في شكل بشري مختلف ، ليتمكن من التجرد من الاهواء والنقائص ، والبلوغ الى الكمال ، فيعود ، حينذاك ، الى الله ويذوب فيه - وهو ما يعتقده البوذيون ، ويدعون الرجوع الاخير الى الله « البلوغ الى النرفانا » ، لقلنا ان محمد علي كان البطليموس الاول ، الذي أطلق معاصروه عليه لقب « صوتر » أي المنقذ. فانه ، مثله ، بل اكثر منه ، أنقذ هذا القطر المحبوب من الفوضى وحشرجة الموت ؛ ثم نفخ فيه من روحه ، فأحياه ، ثم فتح أمامه أبواب السعادة في المستقبل وولج به في الطريق الموصلة اليها. فاستحق ، عن جدارة ، التعريف الجميل الذي أقرنه باسمه ، عارفو الفضل من معاصريه ، وأقرته له الاجيال التالية لجيله ، ألا وهو « محيي الديار وأبو مصر الحديثة »

***

وانا - والخشوع يملأ فؤادنا - نقف اليه كما وقف السلطان عبدالعزيز أمام مقامه في القلعة ، ونقول مع ذلك العاهل : انه كان رجلا عظيما من اكبر رجال التاريخ . وان ذكره مخلد !

